جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالشرقية

محاضرات
في
علم المعاني

لطلاب الفرقة الأولى

تأليف
الأستاذ الدكتور
فريد محمد بدوى النكلاوى
أستاذ ورئيس قسم البلاغة والنقد
بكلية اللغة العربية بالقاهرة
(جامعة الأزهر)

تقديم

الحمد لله حمدا كثيرا ، له الحمد في الأولى والآخرة، أحمده حمدا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه ، خلق الإنسان علمه البيان ، وأصلي وأسلم على خير خلق الله أجمعين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تمسك بهديه ، ذلك النبي العربي الذي أوتي جوامع الكلم فجاء بيانه أفصح بيان.

وبعد ..

فهذه محاضرات في البلاغة العربية تناولنا فيها عدة فنون بلاغية من علم المعاني راعينا فيها السهولة والوضوح ليكون في متناول الطلاب فهم ما جاء فيها واستيعابه.

ونسأل الله – سبحانه وتعالى – أن ينفع بها وأن يجنبنا الزلل في القول والعمل ، وأن يرزقنا الصواب والسداد ، وأن يمنحنا من فضله العون والتوفيق.

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.
وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

أ.د. فريد بدوي النكلاوي

نشأة البلاغة
ووضع قواعدها
ووجه الحاجة إلى دراستها

نشأة البلاغة ووضع قواعدها

إذا نظـــرنا إلـــى تـــاريخ وضع العلوم العربية ، نجد أن معظمها قد وضعت قواعده ، وأرسيت أصوله فى القرون الأولى من الإسلام ، وألفت الكتب العديدة فى فن التفسير والنحو والتصريف والفقه وغيرها من فروع المعـــرفه ، وكانت البلاغة من أبطأ الفنون العربية فى التدوين والاستقلال بذاتها لتكون علْماً معروفاً له قواعده ، وأصوله ؛ لأنّ مسائل البلاغة كانت مـــتفرقة بين بطون الكتب ، كما كانت مصطلحاتها غير واضحة بالصورة المطلوبة . وليس معنى ذلك أن المسائل البلاغية كانت مجهولة أو مهملة مـــن الباحثين ، أو أنها كانت أخر المسائل التى تعرف عليها العلماء : بل على العكس من ذلك فلربما أمكن القول بأن البلاغة كانت أسبق العلوم فى إثارة الفكر ، والحض على التأمل والاستنباط.

ولعل السبب فى تأخر ظهور الدراسات البلاغية فى علم مستقل بها إنما يرجع إلى أن مسائل البلاغة إنما تحتاج إلى الذوق الرفيع الذى يحتاج بالتالى إلى حياة الاستقرار فى الأمة ، ونمو حضارتها .. هذا بالإضافة إلى أن المسائل البلاغية المختلفة كانت موزعه بين طوائف شتى من العلماء ، وكـــان كـــل منهم معتنيا بجانب معين من مسائل البلاغة بقدر حاجته في مجـــال الفرع الذى تخصص فيه ، ومن ثم فإن البلاغة قد لاقت عناية من جانـــب علمـــاء التفســـير والكلام والنحو والأدب .. الخ وظلت مسائلها مبعـــثرة إلى أن هيأ الله لها من العلماء البارزين من جمع هذا الشتات فى كتـــب مســـتقلة صـــارت معـــروفة بهذا الفن و إذا تتبعنا تطور الدراسات

البلاغـــية وجدنا أنها قد مرت بفترات وأطوار مختلفة وانتقلت من موطن إلى موطن قبل أن تحظى بالاستقلال عن العرب القدامى.

(أ) كـــان النقد الفطرى القائم على السليقة هو الخطوة الأولى فى طريق ظهـــور أســـس البلاغة فقد كان للعرب قديماً ملاحظات نقدية على ما يلقـــى بين أيديهم من أشعار وخطب وغيرها يعبرون بتلك الملاحظات عمـــا يشعرون به استحسان أو استهجان لما سمعوه ، ولا نستطيع أن نحـــدد بداية هذه الفترة تحديداً دقيقاً ، ولكن الذى يمكن تصوره هو أن هذه الظاهرة قد وجدت منذ وجد العمل الادبى من شعر وغيره ؛ لأنّ وجـــود النقد مرتبط كما هو معروف بوجود الأعمال الأدبية ، ويكون دائمـــاً فى أعقابها ، وأقدم ما وصل إلينا من نصوص أدبية وفنية جاء مصـــحوبا بمـــا دار حوله من عبارات الاستحسان أو الانتقاد ، وكان للـــرواة أكـــبر الأثـــر فى المحافظة على هذه اللمحات النقدية إلى أن وصلت إلينا فى عصر التدوين ، والجدير بالذكر أن نقدهم كان يتمثل فى عبارات موجزة تخلو عن التحليل أو التعليل ، كما تخلو عن بيان وجه الإستحسان أو الاستهجان .

(ب) ولما جاء صدر الإسلام بقيت اكثر مظاهر النقد على ما هى عليه من حيث كونها ملاحظات متنوعة دون أن يجمعها ترتيب أو تنظيم إلا أن نشاط النقاد فى هذه الفترة قد تزايد فى إبداء الملاحظات ، وقد صحب ظهـــور القرآن ، وهو معجزة الرسول ﷺ ومنهج الحياة - التأثير فى حياة اللغة العربية ، وإحياء علومها إلى جانب إثارة العلماء ، وحثهم

على الجد فى البحث البلاغى لتبين مظاهر بلاغته ، وحسن تأليفه ، وروعة رونقه ، فقد نزل القرآن الكريم بلسان عربى مبين. وكانت آياته فى القمة من البلاغ وكان لدى المسلمين الأوائل الملكة التى تعينهم على فهم كلام الله تعالى فى سهولة وإدراك ما اختصت به تراكيب آياته من الأسرار ، ومعرفة سر إعجازه عند سماعة ، كما كانت لديهم القدرة بفطرتهم على الوقوف فى وجه الملحدين الذين دأبوا على الطعن فى القرآن الكريم.

ولما نشأ فى ظل الإسلام أجيال يصعب عليهم فهم آيات القرآن الكريم وما ترمى إليه من معان بسبب ضعف فطرتهم العربية لما خالطوا غيرهم من أصحاب البلاد التى فتحها المسلمين ، إلى جانب أنّ غير المسلمين من العرب حينما تعلموا اللغة العربية فإن معظمهم لم يكن لديه القدرة فى أن يحسن التعبير أو الفهم لأسرار التراكيب العربية بالقدر الذى ينبغى ، ومن ثم فإنّ العلماء بدأوا يدونون كثيراً من العلوم التى تشتمل على القواعد التى تحفظ اللسان العربى قدرته على التعبير والفهم السليم للتراكيب العربية المختلفة وأولها القران الكريم.

وقد أثار العلماء كثيراً من البحوث التى تجعل الناس يقفون بيسر على أسرار جمال القول ، وإدراك معانى الأساليب .

كما جد كل فريق من العلماء فى البحث فى مجال تخصصه ، وأسهم كل منهم بجانب لا بأس به فى مجال الدراسات البلاغية .

فالمفســرون قد اسهموا فى هذا المجال بجهد مشكور، وذكروا كثيرا مــن مصــطلحات البلاغة فى كتبهم تلك المصطلحات التى نتداولها حتى الآن، فكم فيها من ملامح ومصطلحات بلاغية تبلورت فيما بعد ، ومن اقدم هذه الكتب مجاز القران لأبى عبيده (ت ٢٠٧ هـ) وتأويل مشكل القرآن لبــن قتيــبة (ت ٢٧٦هـــ)ومــن أبرزها إنماءً لدراسة البلاغة الكشاف للزمخشرى (ت ٥٣٨ هـ).

كما شارك علماء العلوم الفلسفية والتوحيد بجهود لا تقل أهمية عن جهــود غيرهم ؛ لأن مسألة إعجاز القرآن الكريم ، ووجه هذا الإعجاز قد خلق جواً من التنافس العلمى بين هؤلاء العلماء على اختلاف طوائفهم لبيان ســر الإعجــاز ، وهــل كــان ذلك الإعجاز يصرف الله همم العرب عن معارضته والإتيان بمثله ؟ أو بما احتواه من أخبار عن غيبيات وغيرها ؟ أو كان إعجازه بدقة نظمه ، وفصاحة أسلوبه وبلاغته ؟..

كــل ذلــك أدى إلى أن تدافع كل فرقة عن مبادئها الخاصة ، وعن رأيهــا فــى هذا المجال ، وكان لا بد لكل فرقة من دراسة القرآن الكريم دراســة متأنية تبين فيها مغزى كل أية ، وما تهدف إليه ، وما وراءها من أسرار ليدعم رأيه بما يتوصل إليه من دراسة لفنون البلاغة ، وقد وضعت كتب فى الإعجاز تحتوى على كثير من مصطلحات البلاغة ، ومن أبرزها فى ذلك الوقت كتاب – نظم القرآن الكريم للجاحظ . (ت ٢٥٥ هـ)

ومـــن جانب أخر فقد ساهم المتكلمون فى إنماء دراسة البلاغة عن طريق ما كانوا يقومون به من تعريف شبابهم بمواطن البلاغة ، وتدريبهم على الخطابة؛ ليحملوا راية الدفاع عن مذاهبهم من بعدهم .

وساهم النحويون كذلك بجهد طيب فى إثراء الدراسات البلاغية التى زخرت بها معظم مؤلفاتهم ؛ لأن نظرتهم لقواعد النحو لم تكن موقوفة على صحة الإعراب فقط ، بل تجاوزت ذلك إلى بيان مواطن التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والتعريف وعدمه ، وغير ذلك من البحوث النحوية التى صـــارت فـــيما بعد من ركائز القواعد البلاغية ، كما كانوا يفاضلون بين أسلوب وأسلوب ، ومن هذه المؤلفات الكتاب سبيوية (ت ١٨٠هـــ) ذلك العالم النحوى المعروف ، وقد بنى عبد القاهر نظرية النظم التى وضع لها كـــتابه دلائل الإعجاز على قواعد النحو ، مسترشداً فى آرائه بما جاء فى الكتاب لسيبويه ، وغيره من النحويين ، على نحو ما ستعرف فيما بعد.

وكـــان للفقهاء ، وعلماء الأصول جهود أثمرت فى دراسة البلاغة ، لأنهـــم اعتمدوا على القرآن ، باعتباره المصدر الأول للتشريع .. ومن هنا فقد تعرضوا فى كتبهم لبيان معنى الحقيقة والمجاز ، والكناية والتصريح ، وكذا النكرة والمعرفة ، والعموم والخصوص .. الخ تلك المصطحات التى صارت من أبرز المسائل البلاغية فى علم البيان والمعانى فيما بعد .

ومـــن أراد أن يـــرى ذلك فعليه بالرجوع إلى مقدمة كتب الأصول المدونـــة قديمـــا وحديثاً ، وسيرى ما فيها من مسائل بلاغية ، ومن أقدمها كتاب الرسالة للأمام الشافعى (ت ٢٤٠ هــ) ﷺ .

كما كان للكُتّاب فى الدولة الإسلامية شأن فى الدراسات الأدبية ، وكان لمؤلفاتهم أثر واضح فى إثراء حياة البلاغة العربية ، وقد أشتهر منهم الكثير كأبن المقفع (ت ١٤٣ هـ) وقدامة بن جعفر ، (ت٣٣٧ هـ) وامتاز منهجهم فى كتاباتهم بأنه منهج أدبى ذوقى ، يقوم علي عرض النصوص ، والموازنة بينها .

وكان لرواة الشعر والأخبار الأدبية دور له أهميّةُ ، فقد وصلوا ماضى العرب بحاضرهم ، وحفظوا تراث اللغة ، ونقلوا ما استطاعوا العثور عليه من متن اللغة ، وأحاديث الأدب ، وكان لهم الفضل فى التعريف بخصائص الأسلوب العربى ، وما يتصل بذلك من دراسة بلاغية.

* * *

أهمية الدراسات البلاغية ووجه الحاجة إليها

إن لدراسة البلاغة أهمية عظيمة لها ثمرتها التى تعود على دراسها بشكل واضح ، ويتمثل ذلك فيما يلى :

(١) الوقوف على أوجه إعجاز القرآن الكريم ومعرفة أن سر فصاحته إنما يرجع فى المقام الأول إلى دقة نظمه ، وحسن ترتيبه ، وجودة سبكه ، وبـــراعة تراكيبه ، ولطف إيجازه ، وعذوبة ألفاظه ، وما احتواه من صور بلاغية رائعة أعجزت أساطين البيان من العرب أن يأتوا بمثلها لأن القرآن الكريم كلام رب العزة ، ذلك الكلام الذى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1] وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [2].

ومـــن المعـــروف أن القـــرآن الكريم قد سحر ببيانه العرب ، وهم مضرب المثل فى الفصاحة وطرق التعبير ، من شعر وغيره ، ولا يخفى عليـــنا قصة الوليد بن المغيرة ، وهو على الشرك حين سمع من الرسول ﷺ بعـــض آيات من كتاب الله فقال (إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وانه يعلو ولا يعلى عليه) [3].

---

١ – سورة فصلت الآية (٤٢) .

٢ – سورة الإسراء الآية (٨٨).

٣ – يـــنظر : مقدمة الإمام الزمخشرى فى كشافة ط صـــ ٦ ، ٧ والكشاف صـــ ٦٣٦ وهو بصدد تفسيره لسورة المدثر.

فمعرفة قواعد البلاغة والوقوف على إدراكها مما يساعد على ذلك.

٢) معـــرفة الأسرار البلاغية التى احتواها التراث الخالد من أشعار العرب ونثرهم في شتى صوره .

٣) تربية الذوق النقدى المرهف ، والملكة القوية التى يستطيع بها الفرد أن يـــدرك ببصيرة نفاذة جمال الصور البيانية الخلابة التى تعرض علينا ، متمثلة فى أساليب التعبير ، من شعر ، وخطابة ، ورسائل ، ومقالات ، وقصص ، فيتمكن الفرد من معرفة الجيد من الردئ من هذه الصور .

٤) تربية المملكة القوية التى يقتدر بها على التعبير فى شتى الأغراض ، والمساعدة على صنع كلام جيد.

٥) تقويم اللسان العربى . والمحافظة عليه من اللحن ، والإبقاء على لغته الأصـــلية حـــتى لا يـــتأثر بما جاوره من اللغات المختلفة ، خاصة بعد اختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم الذين دخلوا الإسلام ، وتعلموا اللغة العربـــية، ومن هنا كان لابد من وضع القواعد الخاصة بتربية الملكات وإنمائهـــا؛ لتكون تلك القواعد بمثابة القوانين التى يرجع إليها عند إرادة الحكـــم علـــى عمل أدبى من حيث الرداءة والجودة ، ويقول أبو هلال العسكرى فى ذلك :-

إن أحـــق العلـــوم بالتعلم ، وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله – جل ثـــناؤه – علم البلاغة ، ومعرفة الفصاحة ، التى بها يعرف إعجاز القرآن الكـــريم... والإنســـان إذا غفل علم البلاغة لم يقع علمه بإعجاز القرآن .. وكذلك يجهل المرء الفرق بين الجيد والردئ من الكلام ، ويجهل الاختيار الحسن ، وقديما قيل : اختيار الرجل قطعة من عقله ، كما أن شعره قطعة من علمه".

أبرز العلماء
الذين أسهموا في تطور الدراسات
البلاغية على مر العصور

أبرز العلماء الذين أسهموا فى تطور الدراسات البلاغية على مر العصور

ذكـرنا أن الـنقد كان من الأسس التى اعتمدت عليها البلاغة فى نشـأتها وتحدثـنا إجمالا عن جهود كثير من طوائف العلماء الذين أسهموا بجانـب لا بأس به فى إثراء الدراسات البلاغية ، ومع ذكر أشهر العلماء الذيـن كان لهم مؤلفات أدبية تناولوا فيها جوانب البحوث البلاغية المتفرقة الـتى ساهمت فيما بعد فى وضع مؤلفات مستقلة على يد بعض العلماء ، وسنذكر ذلك هنا بشيء من التفصيل :-

مـن أقدم الكتب التى بدأت تتكلم عن أمور خدمت البلاغة فيما بعد كـتاب مجـاز القـرآن الكريم ، وقد وضعه **أبو عبيدة معمر بن المثنى** المتوفى سنة ٢٠٩ هـ عندما سأله رجل فى مجلس الفضل بن الربيع عن قوـله تعالى ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾(١) قائلا : إنما يعرف الوعد والوعيد بما قد عرف مثله ، وهذا لم يعرف ؟ فأجابه أبو عبيده : بأن رب العزة – جل جلاله – كلم العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرئ القيس :

أيقتلني والمشـرفى مضاجعى ∴ ومسـنونة زرق كأنياب بأعوال ؟

---

١ – سورة الصافات الآية / ٦٥.

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهمهم أوعدوا به، وعزم أبو عبيدة على أن يضع كتابا فى القرآن فى مثل هذا وأشباهه، وألف كتاب : مجاز القرآن .(١)

والجدير بالذكر أن أبا عبيدة لم يكن يعنى بالمجاز معناه المعروف فـــى اصــطلاح البلاغيين اليوم ، وإنما قصد إلى بيان المعانى المرادة من الآيات الكريمة .

لأن هذه المصطلحات لم تكن تبلورت فى الأذهان بعد ، على كون هــذا اســتعارة أو كناية .. الخ ، كما ظهر إلى الوجود أيضا **كتاب معاني القــرآن لفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـــ** وفيه بعض الملاحظات التى تتعلق بعلــم البلاغة ، فكان يشرح الآيات ، ويبين معنى العبارات ، موضحاً ما فــيها من تقديم وتأخير ، وإيجاز وإطناب وتشبيه ، أو غير ذلك بما يتفق وأولــيات البحث ، وإن لم يكن فى شرحه وبيانه وفاء بالغرض على أكمل وجه(٢).

وفـــى القرن الثالث الهجرى وضع الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هــ كــتابه البــيان والتبيين "وكتاب الحيوان ، ويعد الجاحظ أول من تناول فى كــتابه كثــيراً من مسائل البلاغة الفنية التى كانت القاعدة لمن جاء بعده ،

---

١ - وفيات الأعيان ١٣٨/٢ط / بولاق.

٢ - ينظر : أضواء على مراحل البحث البلاغي للدكتور/ محمد جلال الذهبى ص ٤٠ ط - دار الاتحاد التعاونى للطباعة والنشر - أولى - غير مؤرخة.

ولـــذا فـــإن مـــن العلمـــاء من يعتبره مؤسس البيان العربى بما جمعه من النصوص .[١]

وبالرغم من أن كلامه عن البلاغة والبيان جاء متفرقا فى ثنايا كتبه دون أن يجمعهـــا فى باب واحد ، فقد قدم المادة والمصطلح ، وذكر كثيراً من الشواهد والتحليلات التى أفادت منها كتب فى البلاغة بعد ذلك .

ومن أبرز ما أثاره الجاحظ من مصطلحات بلاغية :

فصاحة الكلمة والكلام ، وذكر أنة لابد للكلمة من تبرئتها من تنافر الحروف وأن تكون مألوفة واضحة ، وتحدث عن مراعاة مقتضى الحال واللفــظ وانتقائه ، والتوفيق بين اللفظ والمعنى ، كما تكلم عن معنى البيان وأورد كثيرا من التعريفات المختلفة لمعنى البلاغة ،وذكر التشبيه والمجاز والايجاز والإطناب[٢].. الخ وأورد لكل ذلك الكثير من الأمثلة من تراثنا الأدبى.

وتحـــدث عـــن البديع ، وذكر كثيراً منه كالسجع ، وأسلوب الحكيم والاقتباس والمذهب الكلامى مع ذكر الكثير من الشواهد[٣].

---

١ - وفيات الأعيان : ١٣٨/٢ ط / بولاق.

٢ - ينظر البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبدالسلام هارون ، جـ١ ، ص ٤٧ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ١١٦ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٢ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، جــــ٢ ، ص ٩٨ ، ٢٠١ ط ، مطبعة الخانجى بمصر ١٣٩٥هـ ١- ١٩٧٥م .

٣ - ينظر البيان والتبيين ، جـ٢ ، ص٩٦، ٢٠١ ، جـ٣ صـــ ٢٤٢ ، جـ ١٨٣ ، جـ ٢ صـــ ٦٧٤ ، جـ ٣ صـــ ١٧ ، ٤٤ ، ٤٥ ط / المطبعة الأزهرية .

ولاشك أن الناظر في كتابه يجد كل هذه المسائل لكنها مبثوثة متفرقة ، ولا يتسع الوقت لسردها بالتفصيل.

ومن الكتب التي كان لها دور بارز في خدمة البلاغة العربية كذلك: **كتاب تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ** ، والذي ذكر في مقدمة كتابه أن الغرض من تأليفه هو الدفاع عن القرآن والذود عنه ضد مطاعن الملحدين الذين ، لغوا فيه وقاموا بتحريف الكلم عن مواضعه، وعابوا عليه بقولهم مرة هو سحر، وأخرى: هو من قول الكهنة، وثالثة بأنه أساطير الأولين [(١)].

هذا وقد عرض بن قتيبة في كتابة المذكور لكثير من المطاعن التي يوجهها الملحدون إلى القرآن الكريم ، مشيراً إلى أن بعضها يرجع إلى الاختلاف في القراءات ، والبعض الأخر يرجع إلى الآيات المتشابهة من الكتاب العزيز التي لا يقف على معناها أو المراد منها إلا الراسخون في العلم ، وقام ابن قتيبة بالرد على هذه المطاعن جميعها عارضاً لحل مشكلات القرآن اللغوية والأسلوبية ، بأسلوب ينم عن مقدرته البارعة على الفهم لمحكم القرآن ومتشابهه.[(٢)]

---

١ -ينظر : تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة تحقيق / إبراهيم شمس الدين صـ٢٣،٢٤ نشر / دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – غير مؤرخة

٢ - ينظر السابق صـ ٢٤: ٦٨.

كما عرض ابن قتيبة فى ثنايا كتابه لكثير من المصطلحات البلاغية كالمجاز ، والاستعارة ، والتمثيل والتقديم ، والتأخير ، والحذف ، والذكر ، والكـناية ، والـتكرار ، والإيجـاز ، والتفصيل ، والإيضاح ، والإظهار ، والقلب ، ومخاطبة الواحد بخطاب الجمع، ومخاطبة الجمع بخطاب الواحد، والالتفات، ومخالفة ظاهر اللفظ لمعناه ، والتورية ، وغير ذلك من المسائل البلاغـية [١] الـتي اعـتمد عليها البلاغيين الذين قاموا بالتميز بين علوم البلاغة الثلاثة (المعانى والبيان والبديع).

ومـن أشهر من ألف كتبا تناولت مسائل من هذا الفن أيضا فى هذا القرن المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ فى كتابه الكامل فى اللغة والأدب ، وتـناول فـيه جوانـب من مسائل البلاغة كالتقديم ، والتشبيه ، والكناية ، والاسـتعارة ، والمثل ، وغير ذلك ، ووقف أمام كثير من النصوص ينتقد ألفاظها وتراكيبها إلا أن كتابه غلب عليه طابع النحو والأدب .[٢]

ومن أشهر المؤلفين من كتابنا فى هذا القرن الشاعر الأمير عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦هـ الذى وضع كتابه البديع سنة ٢٧٤ هـ تـناول فيه العديد من أبواب البلاغة التي تشمل علومها الثلاثة ، وقد أطلق لفـظ البديع بمعناه العام دون المعنى الاصطلاحى المعروف لنا الآن ، وقد قسم الكتاب إلى قسمين :

---

١ – ينظر : السابق ص ٣٠٩:٦٩

٢ – ينظر : الكامل للمبرد جـ ١ صـ ١٨٣،جـ ٢ صـ٦٧٤، جـ ٣ صـ ١٧،٤٤،٤٥، المطبعة الأزهرية .

الأول : الـــبديع ، **والقسم الثانى** : المحاسن ، وجعل البديع متناولاً خمسة أبواب هى :-

الاستعارة، والتجنيس، والمطابقة، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامى .

وأمـــا المحاســـن فهى الالتفات ، والاعتراض ، وحسن الرجوع ، وحُســـن الخروج ، وتأكيد المدح بما شبه الذم ، وتجاهل العارف ، والهزل الذى يراد به الجد ، وحسن التضمين ، والتعريض والكتابة ، والإفراط فى الصفة ، وحسن التشبيه ، ولزوم ما يلزم ، وحسن الابتداء .

ومن الملاحظ أن هذه الأبواب التى أدمجت تحت البديع والمحاسن ، بعضها يندرج تحت علم المعانى وبعضها تحت البيان كما لا يخفى .

والجدير بالذكر أن هذا الكتاب قد أفاد من جاء بعد ابن المعتز كقدامة بـــن جعفر ، وأبو هلال العسكرى ، والآمدى ، وابن رشيق ، ويعد العلماء هذا الكتاب أول خطوة علمية فى دراسة البلاغة فى كتاب مستقل .

والسبب فى وضع هذا الكتاب هو الردُّ على من زعم أن البديع أمر جديد فى الأدب العربى وبيان أنه موجود فى الأدب العربى من قديم .

وفـــى القـــرن الرابع الهجرى كان من أبرز العلماء **قدامة بن جعفر** (ت ٣٣٧ هـــ) صـــاحب كتاب نقد الشعر ، وقد تناول فى هذا الكتاب كثـــيراً من المحسنات البديعية بالمعنى العام للبديع من كون هذه المحسنات أوصـــافاً للشعر ومما ذكره من هذه المحاسن الترصيع والتصريح ، والغلو

والتشبيه ، وصحة التقسيم ، وصحة التفسير ، وصحة المقابلة ، والمبالغة ، والالتفات والإشارة ، والإرداف ، والتمثيل ...الخ .

ومن أبرز من ألف كتباً تناولت العديد من رسائل البلاغة فى هذا القرن الآمدى "**الحسن بن بشر** المتوفى سنة ٢٧١ هـ " صاحب كتاب " الموازنة بين أبى تمام والبحترى " وقد عرض لكثير من النصوص ، ثم شعرهما ، وغيره موازناً بين كل منهما .

وكذلك **القاضى الجرجانى** ت (٣٩٦هـ) فى كتابه الوساطة بين المتنبى وخصومه ، وقد أورد فى الكتاب كثيراً من المصطلحات التى تخص فى البلاغة كالتشبيه والاستعارة ، وعرض بإفاضة كثيراً من المسائل النقدية التى أظهر من خلا لها عيوب الشعر ومحاسنه .(١)

وجاء بعد ذلك **أبو هلال العسكرى** المتوفى سنة ٣٩٥ هـ بكتابه الصناعتين " صناعة الشعر والنثر " الذى يعد أول كتاب له الأهمية فى ميدان البلاغة ، ونقطة تحول النقد إلى بلاغة ، وقد أمتلأ هذا الكتاب بالحديث عن أنواع كثيرة من الفنون البلاغية ، فقد تكلم عن الفصاحة والبلاغة والإيجاز ، والاطناب ، وأجود الكلام وأردئه ، وحسن التأليف ، والتشبيه الجيد ، والردئ والاستعارة ، والتجنيس ، والمقابلة ، والمبالغة ، والمماثلة .

---

١ – ينظر : الوساطة صـ ٤١ طـ – الحلبى .

والجديــر بالذكــر أنَّ أبا هلال قد استفاد كثيراً ممن سبقه ، وخاصة الرمانى (ت ٣٨٦ هــ) فى كتابه النكت فى إعجاز القرآن ، كما تحدث عن السرقات الشعرية ، واعتمد فى كتابه على المنهج التعليمى التقليدى من حيــث الــتعاريف ، والتقاسيم ، وقد أضاف إلى ما عُرف من فنون البديع حوالــى ســبعة انــواع أخرى ليصل عدد أنواع البديع عنده إلى خمسة وثلاثين لونا.

ومن البارزين فى مجال الدراسات البلاغية فى أوائل القرن الخامس الهجــرى **الباقلانى** ت / ٤٠٣هــ فى كتابه إعجاز القرآن ،وصنعه لبيان وجــه إعجــاز القــرآن الكــريم ، فقد تناول فيه كثيراً من خطب العرب وشــعرها؛ ليدل على أن القرآن له سمات خاصة فى التعبير لأنه لم يرتق إلــى مرتبته أى كلام بشرى ٠ ومن خلال عرضه لهذه النماذج تكلم عن مزايا البلاغة كالتشبيه والاستعارة [1] وغير ذلك:

وجاء بعد ذلك الشريف الرَّضى (ت ٤٠٦ هـ) ؛ ليضع لنا كتابين فى البلاغة هما :-

١- تلخيص البيان عن مجازات القرآن ٠ وفي هذا الكتاب عرض للآيات القرآنــية التي خرجت عن معناها الحقيقي الي معنى آخر مجازي ٠ وذكــر ذلك بصورة مجملة ، فلم يتعرض لنوع المجاز فيما ذكره من كونه تشبيهاً أو استعارة أو كناية أو مجازاً مرسلاً على نحو ما عرف بعد ذلك فى الدراسات اللاحقه .

---

١ - ينظر : إعجاز القرآن للباقلانى صـــ ١٠٥ ، ١٠٦ ط -صبيح

٢- كمـــا وضع كتاباً آخر أسماء المجازات النبوية ، جمع فيها الكثير من أحاديــث النــبىﷺ ســائراً فى ذلك على نفس المنهج الذى سلكه فى مجازات القرآن.

وللقاضـــى عبدالجبار المتوفى سنة ٤١٥هــ كتاب المغنى فى أبواب التوحيد تكلم فيه عن العديد من مسائل البلاغة .

وممن كان له باع طويل فى هذا الميدان كذلك **ابن رشيق القيراونى** ت ســنة ٤٦٦هــــ الــذى وضع كتاب العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ، وتألــيف الكـــلام، وتكلــم فى خلال ذلك عن المجاز والكناية والاستعارة والتشبيه ، وذكر الكثير من أنواع البديع المعروفة .

وجاء ابن **سنان الخفاجى** المتوفى سنة ٤٦٦هــ صاحب كتاب سر الفصـــاحة الذى تحدث فيه عن أصول وقواعد بلاغية ظلت تتداول حتى الآن فـــى مؤلفات البلاغة ، ومن أبرز هذه الأصول : حديثه عن البلاغة والفصاحة التى انتفع بها كل من جاء بعده ، كما تكلم عن الإيجاز وغيره .

ثـــم جـــاء إمام البلاغين بحق .. العالم النحوى **عبدالقاهر الجرجانى** المتوفى سنة ٤٧١هــ تلك القمة التى لا تقارن بغيرها ، فقد انفرد بالاتجاه التحلـــيلى الـــنقدى وذلـــك بـــتعمقه فى عرض المسائل والبحث عن العلل والأسباب التى تؤيد صدق ما يذكره ، مع الإكثار من الشواهد ، والإلحاح على الفكرة ، وإعادتها أكثر من مرة بأكثر من أسلوب لتكون قريبة الفهم .

وامتاز عبدالقاهر بذوقه وحسه المرهف .. فقد قام بعرض وتحليل النظم القرآني للوقوف على دقة إعجازه .

ويذكر **العلوى** المتوفى سنة ٧٤٩هـ صاحب كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة أن عبدالقاهر واضع علم البلاغة ، وقد وضع في البلاغة كتابين: **الأول : كتاب : دلائل الإعجاز** ، وقد تناول في أحدهما مسائل علم المعاني فتكلم عن دقة النظم ، والعلاقات التي تربط بين الجمل ، وبنى الكتاب كله على إثبات أن بلاغة الكلام ترجع إلى النظم الذي هو توخي معاني النحو فيما بين الكلم ؛ ليصل من ذلك إلى أن إعجاز القرآن الكريم كان بسبب حسن نظمه وجودة تأليفه .. إلخ ، وقد اشتمل الكتاب على مسائل علم المعاني من التقديم والتأخير ، والفصل والوصل ، والإيجاز والفصاحة والبلاغة .. الخ كما تكلم عن الكناية والاستعارة أيضا.

أما كتابه الثاني : إسرار البلاغة فقد تناول فيه بالتفصيل مسائل علم البيان من التشبيه والتمثيل والاستعارة والمجاز ، وتكلم كذلك عن أنواع من البديع وبين حسن كل ذلك .

وكان اهتمام عبدالقاهر بالمعاني واضحاً ، وأكد على ضرورة الالتزام بالجودة الفنية ، وأن الحكم هو الذوق فيما تحيط به المعرفة ولا تؤديه الصنعة من إحساس بجمال لفظ في موضع خاص أو فطنة إلى قوة رابطة أو أداة في جملة أو لبيت شعر دون غيرها.

ولا يــزال منهج عبدالقاهر إلى اليوم محط أنظار النقاد والأدباء . . وقــد لخــص الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هــ كتابى عبدالقاهر فى كتاب أسماه نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز .

وفــى القــرن السـادس جــاء **العلامة جار الله الزمخشرى** ت سنة ٥٣٨هــ الذى وضع كتابه الكشاف فى التفسير ، والذى اعتمد فيه على ما قدمــه عبدالقاهر من دراسة لمصطلحات علوم البلاغة ، وقام بتطبيق تلك المصطلحات على كتاب الله – سبحانه وتعالى – للكشف عن أسرار إعجاز القرآن ، وأنه كان ببلاغته وفصاحته ، فتناول الكثير من التشبيه والتمثيل ، وتكلــم عــن أســرار الفصــل والوصل ، والقصر ، والتقديم والتأخير ، والإيجــاز والفصــاحة ، والــبلاغة، والكناية وغير ذلك عارضاً كل ذلك بصورة تطبيقيه على ما احتوته الآيات الكريمة من هذه الألوان .

وفــى أوائل القرن السادس الهجرى يأتى **السكاكى** م سنة ٦٢٦ هــ بكــتابه مفتاح العلوم الذى تناول فيه مجموعة من العلوم العربية كالنحو ، والصــرف ، والــبلاغة ، والمنطق ، وقد جعل السكاكى القسم الثالث من كــتابة خاصــاً بعلوم البلاغة الثلاثة ، حيث قسم البلاغة إلى علم المعانى والبــيان ومتمم لهما وهو علم البديع ، وقد أخذ كلام من سبقه من العلماء مــثل عــبدالقاهر ، والزمخشرى وغيرهما ، وأخذ هذه المصطلحات التى تناولها العلماء قبله ، ووضع لها القواعد والتقسيمات التى تضبط هذا الفن ، وجعله علما مستقلاً غاية الاستقلال.

وفـــي ســـبيل وضع هذه القواعد وضبطها ، كان لابد للسكاكى من الإقلال من ذكر الأمثلة ، سوالبعد عن التحليل والعرض الذى امتاز به من سبقه كعبدالقاهر .

والســكاكى وإن كان له الفضل فى ضبط قواعد البلاغة وتحديدها وتبويـــبها وتقسيمها إلا أنه يؤخذ عليه عدم الإكثار من الأمثلة وتحليلها كما يؤخـــذ علـــيه التعرض لكثير من النواحى الفلسفية والمنطقية ، عن طريق تقعـــيده لمصطلحات البلاغة، وقد غلب عليه ذلك نظراً لثقافته التى تأثرت بالفلسفة إلى حد كبير .

وكـــان القســـم الثالث من مفتاح العلوم مجالاً خصباً للعلماء بعد ـــ عـــبدالقاهر، أذ جمـــدت الدراسات البلاغية بعد ذلك ، ووقفت كثيراً عند تلخـــيص المفـــتاح ، أو شـــرحه ، أو وضع الحواشى ، والتقارير عليه ، والمكتبة العربية زاخرة بهذه الشروح والمختصرات .

وكان **الخطيب القزوينى** المتوفى سنة ٧٣٩هـــ قد أولع بهذا الكتاب فوضـــع تلخيصـــاً للقسم الثالث من المفتاح فهذّبه وعدّل ترتيبه ،وزاد فيه بعـــض الشـــواهد ، ثـــم أتبعه بعد ذلك بكتاب آخر أسماه الإيضاح ، جعله كالشرح لهذا التلخيص ، ليوضحه ، ويذكر فيه ما تركه السكاكى من كتابى عـــبدالقاهر ، وامتاز الإيضاح بشئ من التفصيل ، وهو أفضل من أسلوب الســـكاكى ، وإن كان يسير على نهجه ، كما أن عبارته أسهل ، وشواهده أكثر .

ووضـــع **سعد الدين التفتازانى** م ٧٩١ هــ كتابه المختصر ، الذى اختصر فيه القسم الثالث من المفتاح ، ووضع أيضا كتابا أسماه ، " المطول " وقـد شـــرح فـيه تلخـيص المفتاح ، وسلك مسلك التفتازانى فى شرح التلخـــيص كُلٌ من **بهاء الدين السبكى** م ت / ٧٧٣هــ فى كتابه " عروس الأفــراح " **وابن يعقوب المغربى** م ١١١٠هــ فى كتابه " مواهب الفتاح " إلـــى غـــير ذلـــك ، وكل هذه الكتب تسير على نهج السكاكى ، من حيث التقعـــيد، والتبويب ، وخلط البلاغة بالكثير من المسائل الفلسفية ، مما أدى إلـــى تحـــول البحث البلاغى. إلى مجموعة من القواعد والضوابط ، دون الوقوف عند النماذج لتحليلها ، وكان ذلك العمل فى حينه مناسباً لعصره ، وإن كـــان هناك من يعيب السكاكى على مسلكه فى التقعيد والتبويب ، فإن له الفضل فى حفظ قواعد البلاغة وضبط مسائلها.

وممـــن كان لهم جهد أيضا **ابن الأثير** ت / ٦٣٧ هــ صاحب كتاب المثل السائر الذى أشتمل على العديد من أبواب البلاغة وفصولها.

أمـــا فـــى العصـــر الحديث فقد ظهرت عدة كتب تدافع عن البلاغة العربـــية وضرورة تخليصها من الجمود والتعقيد الذى أصابها ، وعرضها فى ثوب جديد رائق يجذب الناظر فيها ويغرى بدراستها والاستفادة منها .

ومـــن أبـــرز هذه الكتب : " فن القول مناهج تجديد " **للأستاذ أمين الخولى** وكتاب " الأسلوب " **للأستاذ أحمد الشايب** ، " ودفاع عن البلاغة "، **للأستاذ / أحمد حسن الزيات** وغير ذلك .

دراسات حول
إعجاز القرآن الكريم

دراسات حول إعجاز القرآن الكريم

تعددت الدراسات التى تتعلق بكتاب الله عز وجل ، فكل عالم تناول هذه الدراسة بما يخدم مجال تخصصه ، من مفسرين ، ولغويين ، ونحاة ، ومتكلمين، وغيرهم ، وقد وضعتْ عدة كتب ، ورسائل تناولت قضية الإعجاز وآراء العلماء فى ذلك ، وسنحاول إيجاز القول فى ذلك عند بعض هؤلاء العلماء ، وقد تحدى الله العرب بأن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بسورة منه فقال جلَّ شأنه ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١) وقد عجزوا عن معارضته وهم النهاية فى الفصاحة والبلاغة ، والغاية فى الطلاقة ، مع توفر دواعيهم لذلك ، ولو حدثت تلك المعارضة لاشتهر ذلك ولكن أحداً لم يقل بذلك إطلاقا فبطلت المعارضة ولو تمكنوا من ذلك لما عرَّضوا أنفسهم للقتل مع سهولة المعارضة .

وسنتناول آراء العلماء فى الإعجاز بإيجاز كما يلى :-

(١) مذهب الصرفة :-

وهذا رأى النظام **وأبى اسحاق النصيبى** ، وهما من المعتزلة ، واختاره الشريف المرتضى من الإمامية ، ويذكر الخطابى أن معنى ذلك أن الله صرف همم القوم عن أن يأتوا بمثله ، ولولا هذا الصرف لكانوا

---

١ -سورة البقرة الأية رقم ٢٣

قادرين على معارضته، وصرْفُ الهمم وتوجيهها لجهة غير المعارضة يعد معجزة في ذاته ؛ لأنه أمر خارق للعادة.

ويفسر العلوي معنى الصرفة بما يلي :-

(أ) سلب دواعيهم إلى المعارضة مع أنَّ أسباب توفر الدواعي في حقهم حاصلة مع التقريع بالعجز ، وترك المراتب العالية ، والتكليف بالخضوع ومخالفة الهوى.

(ب) أنهم سُلبوا العلوم المطلوبة في الإتيان بما يقارب القرآن ويشاكله ، بمعنى أن الله أزال هذه العلوم عن أفئدتهم حتى لا تحصل المعارضة.

(جـ) أن الله منعهم قسْراً وألجأهم إلى عدم المعارضة ، مع كونهم قادرين، وسلب قواهم عن ذلك.

وهذا الرأي باطل لأنه يطعن في الإعجاز ، لأن معنى صرف الله للعرب وسلبُهُم القدرة وتحديهم معناه: أن يُتركوا وقدرتهم حتى يثبت عجزهم ، مع ما توفر لهم من الأسباب والمقدرة على البيان ؛ ولذا فإنَّ الخطابي يرفض هذا المذهب لتنافيه مع ما تدل عليه آية التحدي﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [1].

---

١ سورة الإسراء الآية رقم ٨٨

فاجتماعهم متظاهرين معناه أن يعين بعضهم بعضاً ، ولا يتحقق ذلك العـون إلا إذا كانت هممهم ومقدرتهم موجودة متعاونة للوصول إلى الغاية المنشودة وهى المعارضة .

كمـا يقول **عبدالقاهر** – لإبطال هذا الرأي – فلو أنهم أدركوا أنهم صـاروا عاجزيـن لقالوا للرسول : إنا كنا نستطيع قبل هذا الذي جئتنا به ولكـنك قـد سحرتنا وحلت بما جئت به بيننا وبين مقدرتنا على معارضة وتذاكروا ذلك فيما بينهم وشكوه لبعضهم فقالوا :

ما لنا قد نقصت قرائحنا وكلّت أذهاننا ؟ ولكن ذلك لم يحدث .

ولو كان الإعجاز بالصرفة لما قيل لهم : إنى جئت بما لا تقدرون على مثله ، وإنما يقال : أنى أعطيت أن أحول بينكم وبين كلام تستطيعونه وأمنعكم أياه.[1]

- ولـو كـان القرآن معجزا بالصرفة لما استعظموا فصاحته ، وبلاغته ، وتعجبوا منها كما حدث مع الوليد .
- وكذا القول بالصرفة يؤدى إلى نقصان عقولهم وتغييرها ، ولم يقل أحد بتغـير عقولهم بعد التحدي بل ظلت كما هي ، وظلت حالهم في البلاغة كما هي بعد نزوله ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثله.[2]

---

١ – ثلاث رسائل فى الإعجاز ص ١٣٣.
٢ – راجع الطراز ٣ / ٣٩٤.

* ويذكر **السيوطى** وجها آخر للرد عليهم فيقول : لو صح القول بالصرفة لكان ذلك مقيدا بزمن التحدي ، ولكان القرآن بعد عصر النبوة غير معجز ؛ لانتهاء زمن الصرفة وكل هذه الأمور تظهر بطلان هذا المذهب .

٢) ويرى البعض أن القرآن معجز لاشتماله على الأمور الغيبية فى بعض اياتة كقوله تعالى﴿الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ... الآية﴾[1]وذكر المؤرخون أن الروم غلبت الفرس بعد تسع سنين من نزول الآية ، كما انتصر المسلمون فى نفس الوقت فى بدر ، ويذكر الخطابى[2] أنه لا يمكن الاقتصار على هذا وجعله وجه الإعجاز ، ولكن يمكن أن يقال أن هذا نوع من أنواع إعجازه ؛ لأنه ليس بالأمر العام الموجود فى كل القرآن حتى يكون الإعجاز راجعا إليه ، والمعروف أن الإخبار بالغيب وقع فى بعض الآيات دون بعض فيؤدى إلى خلو الآيات التي لم تشتمل على أمور غيبية من الإعجاز .

٣- ويرى البعض أن إعجاز القرآن يرجع لأسلوبه المخالف لجميع أساليب الكلام كأسلوب الشعر أو الخطابة .

ولا يرتضى **العلوي** ذلك إلا إذا كان المراد بأسلوب الكلام أسلوبه الخاص المشتمل على الفصاحة والبلاغة ، لا مطلق الأسلوب الذى

---

١ سورة الروم الأيتين (١،٢)

٢ - ينظر : ثلاث رسائل صـ ٢٣ ، ٢٤.

يتســاوى فيه القرآن مع غيره ، كما لم يرتض القول بأن الإعجاز راجع إلـى خُلوِّ القرآن عن المناقضة والتعقيد ؛ لأن معنى ذلك أنه لو وجد فى الشـعر أو النثر مقدار سورة من القرآن خالٍ من التعقيد والمناقضة لقيل: إن هذا معجز كالقرآن وهذا باطل، وقد ثبت تعجبهم من حسن نظم الكلام.

٤) ويرى البعض أن وجه الإعجاز راجع إلى اشتمال القرآن على الحقائق والأسرار التى لا تزال غضه طرية لا تنتهى على مر الدهر .

- كما يرى البعض أن إعجاز القرآن يرجع إلى اشتماله على الاستعارة ، والتشبيه ، وغير ذلك من الأمور البلاغية ، وقيل معجز بما تضمنه من مـزايا بديعة فى فواتحه ومقاصده ، وخواتيمه فى كل سورة[١] ، ويمكن جعـل هذه الأمور داخلة فى الإعجاز لا أن يكون كل أمر منها مستقلا بذاته ليكون هو الوجه فى الإعجاز دون غيره .

٥) والمذهـب الحق فى ذلك هو : القول بأن القرآن معجز بحسن نظمه ، وفصـاحته ، وبلاغـته الـتى فاقـت تصورات البشر ، وتنقطع دونها أطمـاعهم . ويفسـر ذلـك العلـوى فيقول : إن الجهابذة من أهل هذه الصناعة قد عوّلوا على ثلاث خواص جعلوها هى الوجه فى الإعجاز.

---

١ - راجع الطراز ٣٩٥ – ٤٠٥.

الخاصية الأولى :

الفصـــاحة فـــى ألفاظه ، وخلوها من التعقيد ، والثقل ، وخفتها على الألسنة، وجريانها عليها كأنها السلسال رقَّةً وصفاءً وعذوبةً وحلاوةً .

الخاصية الثانية :

الــبلاغة فى المعانى بالإضافة إلى مضرب كل مثل مساق كل قصة وخبر، وفي الأوامر والنواهي ، وأنواع الوعيد ، ومحاسن المواعظ..الخ

والخاصية الثالثة :

جــودة الــنظم وحسن السياق ، فقد نظم على أتم نظام ، وأحسنه ، وأكمله، ويدل على ذلك كون التحدى وارداً على جهة الإطلاق ولم يقتصر علـــى جهة خاصة من ذلك دون الأخرى ، وإنما قال الله – عز وجل –: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[١] أى بكل ما اشتملت عليه من الفصاحة ، والبلاغة ، وحسن النظم ، وجودة السبك .

وقد ذكر **الخطابى** : أن القرآن الكريم تميز عن أساليب أرباب البيان؛ لأنــه جمع بين طرقهم جميعاً فى أصناف كلامهم ، لأنَّ كلامهم يجئ على ثلاث مراتب : **أوَّلُهَا** : البليغ الرصين ، **وثانيها** : الفصيح القريب السهل ، **وأدناها** الجائز الطلق المرسل ، وتلك أقسام الكلام الفاضل المحمود ، وقد حـــازت بلاغات القرآن الكريم من كل قسم من هذه الأقسام حصةً ، أخذت كــل نـــوع من أنواع شعبه ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من

١– سورة البقرة من الآية رقم ٢٣ .

الكلام يجمع بين صفتي الفخامة والعذوبة ، واجتماع الوصفين في نظمه مع ثبوت كل واحد منهما على الآخر فضيلة خصَّ بها القرآن ليكون بينةً لنبيِّه.

ثـم يقـول : واعلـم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني .. واضعا مما ذكر فيه موضعه الذى لا يرى شئ أولى منه ، ولا يرى في صورة العقل أمر ألـيق مـنه مودعا أخبار القرون الماضية ، وما نزل من مثلات الله بمن عصـى وعاند منهم ، منبئا عن الكوائن المستقبلة فى الأعصار الباقية من الـزمان ، جامعـاً في ذلك بين الحجة ، والمحتج له ، والدليل ، والمدلول علـيه ؛ ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه ، وأنبأ عن وجوب ما أمر به ونهى عنه ، والجمع بين شتات هذه الأمور ؛ حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عـنه قـوى البشر ، ولا تبلغه قدرهم ، فانقطع الخلق دونه وعجزوا عن معارضته .[1]

ويذكـر أن عمودَ بلاغته هو : وضع كل نوع من الألفاظ موضعه الأخص الأشكَل به الذى إذا أبدل مكانه غيره جاء منه ، إمَّا تبدل المعنى فيفسد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذى يكون به سقوط البلاغة .

ويذكر **الباقلانى** : أن القرآن أعلى منازل البيان ، وأعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه ، وطرقه ، وأبوابه ، من تعديل النظم وسلامته، وحسـنه ، وبهجـته ، وحسن موقعه في السمع ، وسهولته على اللسان ،

---

١ – ثلاث رسائل (٢٨) .

ووقوعه في النفس موقع القبول ، وتصوره تصور المشاهد ، وتشكله على جهته ؛ حتى يحل محل البرهان ودلالة التأليف مما لا ينحصر حسنا وبهجة وسناءً ورفعةً وإذا علا الكلام في نفسه كان له من الواقع في القلوب والتمكن في النفوس ما يذهل ويبهج، ويقلق ويؤنس ، وله مسالك في النفوس لطيفة ، ومداخل إلى القلوب دقيقة.[١]

وأما **عبد القاهر الجرجاني** فإنَّ رأيه [٢] يتلخص في أن القرآن لم يكن معجزاً بكلماته المفردة ولا بمعاني الكلمات التي وضعت لها في اللغة، ولا بتركيب الحركات والسكنات ، ولا بقواطعه وفواصله ، وذكر أن القول بأن القرآن معجز بذلك ناشىء من سوء المعرفة ، ومن يزعم أن البرهان الذي بان لهم ، والروعة التي دخلت عليهم فأزعجتهم حتى قالوا : أن له لحلاوة .. الخ إنما كان الشيء راعهم من مواقع حركاته ، ومن تركيب بينها وبين سكناته أو لفواصل في آخر آياته ؟.

وهل قال **ابن مسعود** عنه "لا يُتَفه ولا يشان "وقال " إذا وقعت في آل حم وقعت في روضات د مثات اتأنق فيهن " يعني يتتبع محاسنهن ، هل قال ذلك من أجل أوزان الكلمات ، ومن اجل الفواصل في آخر الايات،ثم يقول :ولا يمكن جعل الاستعارة الأصل في الإعجاز حتى لا يكون الأعجاز في آيات معدودة منه ثم يقول :

---

١ – إعجاز القرآن للباقلاني (٢٠٩)

٢ – ينظر : دلائل الإعجاز – تحقيق / محمود محمد شاكر صــ ٣٨٥ : ٤٢٠ ، نشر مكتبة الخانجي – غير مؤرخة .

"فـــإذا ابطـــل أن يكون الوصف الذى أعجزهم من القرآن شئ مما عددناه لم يبق إلا أن يكون في النظم والتأليف الذى هو توخى معانى النحو فـــيما بيـــن الكلـــم " وأخذ في كتابه دلائل الإعجاز يبين كيفية هذا النظم والفـــروق بين التراكيب ليصل في نهاية الأمر إلى أنَّ إعجاز القرآن إنما كان بحسن نظمه وبلاغته .

ويذكـــر أنـــه لا يقصد بالنظم مجرد وضع كلمات بجوار بعضها أو وضع جمل بلا ترتيب مقصود ، وإنما المراد وضع كل كلمة مع ما يناسبها وان ترتب العبارات حسب ترتب المعانى فى الفكر .

وجه أخر فى الإعجاز :

ذكـــر **الخطابى** وجها آخر فى إعجاز القرآن [١] غير ما تقدم وهو : صـــنيع القـــرآن بالقلوب وتأثيره فى النفوس ، فإن القرآن إذا قرع السمع وصَّـــل إلى القلب لذة ، وحلاوة ، وروعة و مهابة ، ومن ثم تستبشر به الـــنفوس ، وتنشرح له الصدور ، وهو يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ، فكم من عدوٍّ للرسول ﷺ أقبل يريد النيل منه – علـــيه السلام – فيسمع آيات القرآن، فيتحول عن رأيه ويدخل فى دينه كما حدث مع عمر بن الخطاب ﷺ وغيره.

ومن ذلك ما حدث مع **الوليد بن المغيرة** حين وصف القرآن بأنَّ له حلاوة وأن عليه طلاوة .. الخ

---

١ – ثلاث رسائل صـــ ٧٠ ، ٧١.

وقد سمعته الجن فلم تتمالك أن قالت ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ (١).

ويقول سبحانه : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢).

---

١ - سورة الجن الآيتان (١ ، ٢) .
٢ - سورة الأنفال من الآية رقم (٢) .

الفصاحة والبلاغة

عند البلاغيين

لغة، واصطلاحاً، وتطبيقاً

الفصاحة والبلاغة

أولاً : معنى الفصاحة :

تطلق الفصاحة في اللغة على عدة معان تدور كلها حول الإبانة وكون الشئ واضحاً جليا لا يحول دون معرفته أدنى لبس ، ومن ثم تطلق الفصاحة على البيان ، فاللفظ الفصيح : ما يدرك حسنه بالسمع ، بأن يكون ظهر الدلالة على معناه فيتبادر فهمه إلى ذهن المخاطب فضلاً عن كونه مأنوس الاستعمال بين الكتاب والشعراء لمكان حسنه واستعمال العرب الخلص له.

ولذا يقال : فصح الأعجمى – بضم الصاد – أى تكلم بالعربية وفهم عنه ما يقول ، وأفصح : تكلم بالفصاحة ، ويوم فصح – بكسر الفاء – ومفصح : بلا غيم ولا قر ، وأفصح الصبح : استبان ضوؤه ، وأفصح بالشئ : صرح به.[1]

والبلاغيون يبحثون فى فصاحة الكلمة لأنها اللبنة الأولى فى بناء الجملة فمتى سلمت من العيوب المخلة بالفصاحة سلمت الجملة من ذلك وبالتالى يسلم الكلام كله ، كما يبحثون فى فصاحة الكلام ليكون واضحا بينا مأنوسا للمخاطب ويبحثون كذلك فى كيفية تحقق الفصاحة لدى المتكلم لأنه الذى تؤخذ عنه المعانى المراده والأغراض.

---

(١) القاموس المحيط ٢٤٨/١ والمطول ١٥.

فصاحة الكلمة :

يراد بفصاحة الكلمة : كونها مركبة من حروف متآلفة متناسقة يسهل نطقها من غير مشقة مع وضوح معناها وموافقتها لقوانين الصرف وكثرة تداولها بين الذين اشتهروا بالفصاحة.

ويتحقق ذلك بالذوق السليم والإلمام بمفردات اللغة ومعرفة المستعمل منها والمهمل لغرابته أو ثقله ، مع استيعاب قوانين الصرف.

وقد وضع البلاغيون شروطا يتحقق بها كون الكلمة فصيحة وهى :

١- **خلوصها من تنافر الحروف** ، ليسهل النطق بها ولا يشعر المخاطب بكراهية السمع لها ، وتنافر الحروف : وصف فى الكلمة يوجب ثقلها على اللسان وعسر النطق بها مع كراهة السمع لها.

والتنافر نوعان : تنافر خفيف كالنقنقة لصوت الضفادع ، والنقاخ للماء العذب البارد ، ومستشزرات فى قول امرئ القيس :

غدائره مستشزرات إلى العلا تضل المدارى فى مثنى ومرسل

مستشزرات بمعنى مرتفعات يصعب النطق بها لاجتماع التاء والشين والزاى فيها ، ومن ذلك كلمة اطلخم بمعنى اشتد فى قول أبى تمام.

قد قلت لما اطلخم الأمر وانبعثت عشواء تالية غبساً دهاريساً

فان اطلخم كلمة ثقيلة على اللسان كريهة فى الذوق غليظة فى السمع مع غرابتها فإن مستشزرات بمعنى مرتفعات يصعب النطق بها لاجتماع التاء والشين والزاى فيها.

ومن ذلك الجرشى بمعنى النفس ، العثلوج بمعنى الغصن.

والتنافر الثقيل مثل الظش للمكان الخشن ، والهعخع لنبت ترعاه الإبل وذلك من قول أعرابى سئل عن ناقته فقال : تركتها ترعى الهعخع.

هــذا ويــرى البعض أن من أسباب ثقل الكلمة طول حروفها كقول الشاعر :

إن الكــــريم بــــلا كــــرام مــــنهم   مــثل القلــوب بــلا سويداواتها

فقد طالت الحروف فى سويداواتها فثقلت على اللسان ، ولكن يجب أن يعلــم أن طــول حــروف الكلمة ليس موجبا لثقلها فى كل حال ، فالقرآن الكــريم – وهــو المعجز بفصاحته وبيانه – قد وردت فيه كلمات طويلة ولكــنها فى غاية الفصاحة لسهولة نطقها واستعذاب سماعها كما في قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾.(١)

هــذا ، ويرى بعض العلماء أن سبب التنافر فى الكلمة راجع إما إلى بعــد مخــارج حروف الكلمة بحيث يكون الانتقال من أحدهما إلى الآخر كالطفرة ، وإما إلى قرب تلك المخارج بحيث يكون الانتقال من أحدهما إلى الآخر كالمشى فى القيد.

ولكــن ابن الأثير يرد على هؤلاء : بأن التنافر غير راجع إلى بعد مخارج الحروف أو قربها وذلك لأننا نجد كلمات تركبت من حروف قريبة المخارج وغير متنافرة مثل (الجيش – الشجى) ومن ذلك فى القرآن الكريم

---

(١) سورة البقرة ١٣٧.

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ﴾[(١)] وجاء من البعيد المخارج ما ليس بمتنافر كذلك مثل (علم – بلغ – ملح – غلب) قال سعد الدين في المطول :

ومن ثم فإن مرجع التنافر في الكلمة هو الذوق وليس قرب المخارج أو بعدها "فكل ما عده الذوق الصحيح ثقيلا متعثر النطق فهو متنافر سواء كان من قرب المخارج أو بعدها أو غير ذلك.[(٢)]

٢- خلو الكلمة من غرابة الاستعمال :

كـــون الكلمة وحشية غير ظاهرة المعنى ولا مأنوسة الاستعمال عند العرب الفصحاء فيحتاج في إدراك معناها إلى البحث وهي قسمان :

أ-أن تكـــون الكلمـــة محتاجة لمعرفة معناها إلى البحث والتنقيب في كتب اللغـــة لكونهـــا قليلة الاستعمال عند العرب الخلص ، وذلك مثل تكأكأتم بمعـــنى اجتمعـــتم في قول عيسى بن عمر النحوي عندما اجتمع الناس حوله : ما لكم تكأكأتم على كتكأكئكم على ذي جنة افرنقعوا ، فان تكأكأ وافـــرنقع – بمعنى انصرف – لا يعرف معناهما إلا بالرجوع إلى كتب اللغـــة ولذا حكم بغرابتهما، ومنه المشمخر بمعنى الجبل العالي في قول الشاعر يصف أسدا :

فخـــر مدرجـــا بـــدم كـــأني .. هدمـــت بـــه بـــناء مشـــمخرا

(١) سورة يس ٦٠.

(٢) المطول ص ١٧.

ب-مـــا يؤدى إلى حيرة السامع فى فهم المعنى المقصود من الكلمة لكونها دالة على معنيين أو أكثر بلا قرينة تحدد المراد منها فيخرج لها وجه بعيد ، مثل كلمة مسرج فى قول الشاعر :

وفاحمـــــا ومرســـــنا مســـــرجا

فـــإن هـــذه الكلمـــة (مسرجاً) لم يعرف ما أريد بها حتى قيل : إنها مـــأخوذة مـــن قولهم للسيوف سريجية نسبة إلى سريج – وهو رجل صنع الســيوف – فيكون المراد على هذا أن أنف تلك المرأة فى الاستواء والدقة كالســيف الســريجى ، وقيل : أن الكلمة منسوبة إلى السراج (المصباح) فـيكون المـــراد تشبيه الأنف بالسراج فى البريق واللمعان ولذلك وصفت الكلمـــة بالغـــرابة لترددها بين أكثر من معنى من غير قرينة تحدد المراد مـــنها، أمـــا إذا وجدت القرينة الدالة على المراد من الكلمة فإنها توصف بالفصاحة عندئذ كما فى قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾[1] فإن (عزر) تدل على معنى التعظيم والإهانة معا لكن ذكر معها قرينة تحدد أن المـــراد فى الآية هو التعظيم ، وتلك القرينة هى قوله بعدها ونصروه ، إلى جانب ذكر الإيمان أيضاً.

والاحـــتراز عـــن الغـــرابة يمكن تحصيله بكثرة الاطلاع على كلام العرب والإحاطة بالمفردات المأنوسة لديهم والتى كثر استعمالهم لها ، هذا ولا يظن أن لمراد بالغرابة هنا ما كان حسنا من الألفاظ لأن هناك كلمات

(١) سورة الأعراف ١٥٧.

استعملها العرب الخلص قديما وتحتاج منا الآن إلى معرفة معناها في كتب اللغـــة أحياناً لأننا لم نستعملها كثيرا أو استعملنا مرادفها فهذه الألفاظ وإن كانــت غريــبة بالنســبة لــنا فهي فصيحة عند القدماء ولذلك يقول السعد والوحشى قسمان :

١- غريب حسن وهو الذى لا يعاب استعماله على العرب لأنه لم يكن وحشــيا عــندهم مثل (اشمخر) بمعنى طال ، والشمخرة : الكبر ، ومن ذلك ما يعرف بغريب القرآن والحديث.

٢- غريــب قبيح وهو ما يعاب استعماله مطلقا ويسمى الوحشى الغليظ ويكــون مع غرابة استعماله ثقيلا على المسع كريها على الذوق ، ويسمى المتوعر أيضاً مثل (اطلخم).[١]

٣-أن تكون الكلمة غير مخالفة للقياس :

ومخالفــة القــياس يقصد به كون الكلمة واردة على خلاف القانون الصرفى المستنبط من تتبع لغة العرب ، وذلك كقول أبى النجم :

الحمــــــد لله العلـــــــــى الأجلـــــــــل

فقد جاءت الأجلل مخالفة للقياس الصرفى لأن الشاعر فك الإدغام فى الكلمـــة بدون وجه ، والقياس فيها هنا الإدغام ، فيقال: الأجل، ومنه قول الشاعر:

مهـــلا أعـــاذل قد جريت من خلقى ... أنـــى أجـــود لأقـــوام وإن ضننوا

---

(١) المطول ص ١٨.

القــياس ضـــنوا بالإدغام لكن الشاعر فك الإدغام بلا مسوغ فخالف القياس ، ويندرج تحت المخالفة كل ما تنكره اللغة لمأخذ لغوى أو صرفى.

هــذا وممـــا ينــبغى أن يعلم أنهم استثنوا من مخالفة القياس ما ثبت اســتعماله لــدى العــرب من الشواذ الثابتة عن الواضع ولذا وصفت تلك الشواذ بالفصاحة لاستعمالهم لها على شذوذه مثل :

المشرق والمغرب بكسر الراء فيهما والقياس الفتح ، وعور والقياس عـار لتحرك الواو وانفتاح ما قبلها ، واستحوذ ، والقياس : استحاذ ، وآل وماء ، واصلهما : أهل وموه ، وهكذا.

ويمكــن الاحــتراز عــن مخالفة القياس بالاطلاع على قوانين علم الصرف والإحاطة بها.

ومــن العلماء من يشترط لفصاحة الكلمة مع ما سبق : أن لا تكون مكروهة فى السمع يتبرأ من سماعها كما يتبرأ من سماع الأصوات المنكرة لكــن الصــواب أن الكراهة فى السمع داخلة تحت الغرابة المفسرة بكون الكلمة وحشية.

ومـــنهم من يشترط أيضاً لتحقق الفصاحة فى الكلمة ألا تكون عامية مبــتذلة، تجــرى علـــى ألســـنة العامة بكثرة لأن للأدباء والشعراء ألفاظاً يستعملونها ولا يليق بهم استخدام ألفاظ جرت على ألسنة العامة.

فصاحة الكلام:

المــراد مــن فصاحة الكلام سلامته بعد فصاحة مفرداته مما يبهم معــناه ويحول دون المراد منه ، وتتحقق الفصاحة في الكلم بخلوصه من العيوب الآتية:

١ـ تنافر الكلمات :

هــو كــون الكلمات ثقيلة على السمع من تركيبها مع بعضها عسرة الــنطق بهــا مجتمعة ، وتنافر الكلمات يحصل إما بتجاور كلمات متقاربة الحــروف وإما بتكرير كلمة واحدة عدة مرات فى الكلام ، ومن التنافر ما هو ثقيل متناه فى الثقل ، كقول الشاعر :

وقــــبر حــــرب بمكـــــان قفـــــر ولــيس قــرب قــبر حــرب قبر

فكلمــات البيــت جاءت حروفها متقاربة المخارج ولذا كان ثقيلاً فى النطق يكد اللسان ، وقول المتنبى :

فقلقلــت بــالهم الــذى قلقل الحشا قلاقــل عــيس كلهـــن قلاقـــل

معنى قلقل حرك ، والحشا ما انطوت عليه الضلوع ، وقلاقل الأولى يــريد به الناقة السريعة والثانية يريد بها الحركة ، ووصف البيت بالتنافر بسبب تكرار القاف واللام فى الكلمات مما جعلها مكروهة فى السمع عسرة على اللسان فى النطق ، ومنه قول الشاعر :

والمجــد لا يرضـــى بأن ترضى بأن يرضـــى المعاشـــر منك إلا بالرضا

فـــى البيـــت إخلال بفصاحة الكلام نشأ من تكرار كلمة يرضى عدة مرات مما سبب تنافرا بين الكلمات.

ومن التنافر ما هو خفيف كقول أبى تمام :

كـــريم مـــتى أمدحه أمدحه والورى معـــى وإذا مـــا لمته لمته وحدى

جـــاء الثقل فى البيت من تكرار كلمة أمدحه مع اجتماع الحاء والهاء أيضـــاً فـــى الكلمـــة إلا أن التنافر فى البيت خفيف لا يتعب اللسان كثيرا كالنوع الأول ، ومنه قول الشاعر :

ومـــن جـــاهل بى وهو يجهل جهله ويجهـــل علمـــى أنـــه بـــى جاهل

نشأ الثقل من تكرار يجهل فى البيت عدة مرات لكن التنافر من النوع الخفيف.

وممـــا يعـــده الـــبعض داخلا فى تنافر الكلمات كثرة التكرار وتتابع الإضافات فى الكلام كقول المتنبى يمدح فرسا :

وتســـعدنى فـــى غمـــرة بعد غمرة ســـبوح لهـــا مـــنها عليها شواهد

يقـــول : إنهـــا فرس حسنة الجرى لا تتعب راكبها كأنها تجرى فى الماء ولهذه الفرس من نفسها علامات تشهد بنجابتها ، وقد جاء التنافر من تكرار حروف الجر ومجرورها مما جعل الثقل ملحوظاً ، وتتابع الإضافات كقول ابن بابك :

حمامة جرعى حومة الجندل اسجعى فأنـــت بمـــرأى من سعاد ومسمع

جـــرعى : أرض ذات رمـــل لا تنبت شيئا ، والحومة معظم الشئ ، والجـــندل: أرض ذات حجارة ، بمرأى من سعاد ومسمع أى بحيث تراك وتسمع قولك ، وفى البيت عنده إضافات هى : إضافة حمامة إلى جرعى ، وجـــرعى إلى حومة ، وإضافة حومة إلى الجندل ولذا كان البيت ثقيلا فى النطق.

لكـــن الخطيـــب القزوينى عارض هؤلاء بقوله "إن ذلك –يعنى تتابع الإضـــافات– إن أفضـــى باللفظ إلى الثقل على اللسان فقد حصل الاحتراز عنه بما تقدم ، وإن لم يفض إلى الثقل فلا يخل بالفصاحة"[١] واستشهد على ذلك بقول النبى ﷺ:

الكـــريم بـــن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، كما أورد قـــول عبد القاهر : إياك والإضافات المتداخلة فإنها لا تحسن ، فإذا سلمت من الاستكراه كانت مليحة لطيفة ، كقول ابن المعتز :

وظلـــت تديـــر الكـــأس أيدى جآذر ... عـــتاق دنانـــير الوجـــوه مـــلاح

وقـــال سعد الدين : إن تتابع الإضافات وكثرة التكرار إن أوجبا ثقلا وبشـــاعة فـــيخلان بالفصاحة وإلا فلا جهة لإخلالهم بالفصاحة ، كيف وقد وقعا فى التنزيل ، كقوله تعالى ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[٢] وقوله ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾[٣].

(١) الإيضاح جـــ١ ص ٧ ، ٨ وانظر المطول ٢٣.
(٢) سورة غافر ٣١.
(٣) سورة مريم ٢.

فهـذه الإضـافات لا يـبدو عليها أى ثقل ولذا كانت حسنة فى غاية الفصاحة، ومن هنا يمكن القول بأن تتابع الإضافات لا يخل بالفصاحة فى كـل حال وإنما يحدث ذلك إذا كان التتابع كثيرا يثقل معه نطق الكلمات ، أمـا إذا كانـت هـناك إضافات لكنها لا تثقل نطق الكلمات فإنها توصف بالفصـاحة وخـير شـاهد على ذلك ما جاء فى القرآن الكريم من الآيات المذكورة.(١)

٢ـ ضعف التأليف :

هـو أن يكون تأليف الكلام جاريا على خلاف ما اشتهر من قوانين الـنحو المعتـبرة لدى جمهور العلماء ، وذلك كالإضمار قبل ذكر مرجعه لفظـا نحو : ضرب غلامُهُ زيداً ، فان الضمير فى غلامه راجع إلى زيد وهو لم يتقدم ذكره فى الكلام حتى يصح الإضمار ولكنه وقع متأخرا لفظا ورتبة ، ومنه قول حسان بن ثابت :

ولـو أن مجـدا أخلـد الدهر واحدا ... من الناس أبقى مجده الدهر مطعما

يقصـد بمطعـم أحد رؤساء المشركين الذين دافعوا عن النبى ﷺ، والمعـنى: لو كان المجد سببا فى الخلود لكان مطعم بن عدى أولى الناس بالخلود لأنه حاز من المجد قدرا كبيرا لم يحزه غيره ، والضمير فى مجده راجع إلى مطعم وهو متأخر فى اللفظ كما نرى أنه متأخر فى الرتبة لأنه

(١) أنظر المطول ص ٢٣ ، ٢٤.

مفعول به ولذلك كان البيت غير فصيح لمخالفته قواعد النحو ، ومنه أيضاً قول الشاعر :

كســا حلمـــه ذا الحلم أثواب سؤدد ورقى نداه ذا الندى فى ذرا المجد

أى من كان عادته الحلم والكرم حاز السيادة والرفعة ، فالضمير فى حلمـــه لــذي الحلم المذكور بعد ، فهو المتأخر لفظا ومعنى وحكما ، وكذا الضمير فى نداه لذى الندى وهو متأخر عنه ، ومن مخالفة قوانين النحو : وصل الضمير بإلا فى قول المتنبى.

لـــم تـــر مـــن نادمـــت إلاَّ كـــا

ومـــن ضـــعف التأليف وصل الضميرين وتقديم غير الأعرف منهما على الأعرف مع أنه لا بد من الفصل فى هذه الحالة ، كقول المتنبى :

خلــت الـبلاد مــن الغـزالة ليلها فأعاضـــهاك الله كـــى لا تحـــزنا

فقد وصل الضميرين – الهاء والكاف – وقدم الهاء على الكاف التى هى أعرف منها – وينبغى أن يعلم أن ضعف التأليف إنما ينشأ من العدول عـــن المشـــهور لدى العلماء إلى قول له صحة عند بعض العلماء لكنه ، ضعيف ، أما إذا خالف الكلام ما أجمع عليه العلماء – كجر الفاعل ونصب المبتدأ – فإنه يكون فاسداً على الإطلاق لا يعتد به.

ويمكـــن الاحـــتراز عـــن ضعف التأليف بالاطلاع على علم النحو والإحاطة بقواعده.

٣ـ التعقيد :

هـو ألا يكـون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى المراد منه ، وهو ضربان :

أ–التعقيد اللفظى :

وهو ما يرجع إلى الخلل فى نظم الكلام فيؤدى إلى اضطراب المعنى وذلـك بألا يكون ترتيب الكلام على وفق ترتيب المعانى وينشأ ذلك من تقديـم أو تأخير أو حذف فى غير محله أو فصل بأجنبى بين الكلمات التى يجب أن تتصل ببعضها – كالفصل بين الموصوف والصفة أو بين المبتدأ والخـبر بحيث يوجب ذلك صعوبة فى فهم المراد من الكلام فلا يدرى السامع كيف يتوصل إلى معناه كقول الفرزدق :

ومـا مـثله فـى الـناس إلا مملكا أبـو أمـه حـى أبـوه يقاربـه

يريد أن يقول: وما مثله فى الناس حى يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه، أى لا يماثله أحد فى الفضائل إلا ابن أخته الذى هو هشام.

والبيـت فى مدح إبراهيم بن هشام خال هشام بن عبد الملك ، فقال : وما مثله : يعنى ابراهيم الممدوح ، فى الناس حى يقاربه. – أى يشبهه فى الفضائل – الا مملكا : يعنى هشاما، أبو أمه. أى أبو هشام ، أبوه : أى أبو الممدوح ، فالضمير فى أمه للملك ، وفى أبوه للمدوح ففصل بين (أبو أمه) وهو مبتدأ (وأبوه) وهو خبر (بحى) ، وهو أجنبى ، وكذا فصل بين (حى)

و (يقاربــه) وهــو نعت حى (بأبوه) وهو أجنبى ، كما قدم المستثنى على المستثنى منه ، ولذا كان البيت فى غاية التعقيد كما هو ظاهر.

ومنه قول الشاعر :

فأصــبحت بعــد خــط بهجــتها كــأن قفــراً رســومها قلمــا

المعــنى : فأصــبحت بعد بهجتها قفرا كأن قلما خط رسومها ، وقد فصل بين أصبح وخبره أى (فأصبحت قفرا) وبين كأن واسمها (كأن قلمه) وبيــن المضــاف والمضاف إليه (بعد بهجتها) وقدم خبر كان عليها وعلى اســمها وهــو جملــة خط ، وكل هذا – من التقديم والتأخير والفصل بين التراكيب – جعل البيت مختل النظم غامض المعنى – ومن التعقيد اللفظى أيضاً قول الشاعر :

أنــى يكــون أبــا الــبرايا آدم وأبــوك والــثقلان أنــت محمــد

يــريد : كــيف يكون آدم أبا البرايا وأبوك محمد وأنت الثقلان؟ أى الإنس والجن ، يعنى أنه قد جمع ما فى الخليقة من الفضل والكمال ، وقد فصل بين المبتدأ والخبر وهما : أبوك محمد بأجنبى وهو – الثقلان أنت – وقدم الخبر على المبتدأ تقديما قد يدعوا إلى اللبس فى قوله : والثقلان أنت، علــى أنــه بعد هذا التعسف فى التقديم والفصل لم يخل البيت من السخف والسماجة ومنه قول الشاعر :

والشــمس طالعــة ليســت بكاسفة تــبكى علــيك نجوم الليل والقمر

أى والشمس ليست بكاسفة نجوم الليل وهى تبكى عليك والقمر يبكى علـيك أيضاً ، لكنه فصل بين كاسفة ومفعولها الذى هو نجوم وذلك بجملة تبكى عليك.

ويمكن الاحتراز عن التعقيد اللفظى بإتقان علم النحو ومعرفة قوانينه؛ لأن الكـلام الخالى من التعقيد اللفظى هو ما سلم نظمه من الخلل فلم يكن فـيه مـا يخالف الأصل من تقديم أو حذف أو إضمار إلا وقد قامت عليه قرينة ظاهرة سواء كانت لفظية أو معنوية.

ب–التعقيد المعنوى :

هو ألا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى المراد لخلل فى انتقال الذهن من المعنى الأول – المفهوم بحسب اللغة والذى لم يرد – إلى المعنى الـثانى المقصود فى الكلام ، وذلك الخلل يكون بسبب إيراد اللوازم البعيدة الـتى تحتاج إلى الوسائط الكثيرة مع خفاء القرائن الدالة على المراد ، بأن يكـون فهم المعنى الثانى من الأول بعيدا عن الفهم عرفا[١] ومن ذلك قول العباس بن الأحنف :

سـأطلب بعـد الـدار عنكم لتقربوا وتسـكب عيـناى الدموع لتجمدا

---

(١) فالمـناط فى الصعوبة يرجع إلى عدم الجريان على ما يتعاطاه أهل الذوق السليم لا كثرة الوسائط الحسية ، فإنها قد تكثر من غير صعوبة كما فى قولهم : فلان كثير الرماد ، كناية عن المضياف فإن الوسائط كثيرة لكنه خال من التعقيد لجريه على العرف والذوق السليم.

يقــول : انه سيطلب الابتعاد عنهم ويفارقهم ليكون له بعد وصل دائم لا ينــقطع ، وقــد كنى عن معنيين فى الشطر الثانى فأصاب فى أحدهما وأخطأ فى الثانى ، لأنه جعل سكب الدموع – وهو البكاء – كناية عما يلزم فــراق الأحبة من الحزن والكآبة فأحسن فى ذلك وأصاب ، لأنه كثيرا ما يجعل البكاء دليلا على الحزن لكنه أخطأ فى الكناية الثانية لأنه جعل جمود العين كناية عما يوجبه التلاقى من الفرح والسرور المسببين عن التلاقى ، وهذا خفى بعيد إذ لم يعرف فى كلام العرب عند الدعاء لشخص بالسرور أن يقال له : جمدت عينك ، أو لا زالت عينك جامدة ، بل المعروف عندهم أن جمــود العيــن إنــا يكنى به عن عدم البكاء حالة الحزن الشديد كقول الشاعر :

ألا إن عيــنا لــم تجــد يوم واسط … علــيك بجــارى دمعهــا لجمــود

فالمراد بخل العين بالبكاء حين إرادته منها ولا يكون ذلك إلا فى شدة الحزن – والسبب فى خطأ الشاعر فى القياس : أنه ظن أن الجمود يراد به خلــو العين من البكاء مطلقا من غير اعتبار شئ آخر فخرج عن المألوف مــن أســاليب الــبلغاء فوقع فى هذا التعقيد الذى تسبب عن كثرة الوسائط البعيدة – بأن ينتقل من جود العين إلى انتفاء الدمع منها حال إرادة البكاء ، ومنه إلى انتفاء الدمع مطلقا ، ومنه إلى انتفاء الحزن ، ومن انتفاء الحزن إلــى السرور – ولا يخفى أن الشاعر قد طوى جميع هذه الوسائط فأورث بــطء الانتقال من المعنى الأصلى إلى المعنى المراد ، ولذا وصف البيت بالتعقيد المعنوى.

ومن التعقيد المعنوى أيضاً قول زهير :

ومـــن لـــم يزد عن حوضه بسلاحه يهــدم ومـــن لم يظلم الناس يظلم

فقــد كنى بالظلم عن المحافظة على الحقوق ، وهذا بعيد يحتاج فى اســتخراجه إلـــى كــد وعناء ، وهكذا كل الكنايات التى تستعملها العرب لأغـــراض ويغـــيرها المتكلم ويريد بها أغراضاً أخرى تعتبر خروجاً عن سنن العرب فى استعمالاتهم.

ولذلـــك يقـــول عـــبد القاهر فى ذم التعقيد : "وأما التعقيد فإنما كان مذمومـــا لأجـــل أن اللفظ لم يرتب الترتيب الذى بمثله تحصل الدلالة على الغرض حتى احتاج السامع أن يطلب المعنى بالحيلة ويسعى إليه من غير الطريق كقوله (المتنبى).[1]

ولـــذا اســـم أغطية العيون جفونها مـــن أنهـــا عمل السيوف عوامل

(والمعنى : إنما سميت أغطية العيون جفونا لأنها ضمت أحداقا تعمل عمـــل السيوف) ... وإنما ذم هذا الجنس لأنه أحوجك إلى فكر زائد على المقـــدار الذى يجب فى مثله ، وكدك بسوء الدلالة ، وأودع لك المعنى فى قالـــب غير مستو ، بل خشن مضرس ، حتى إذا رمت إخراجه منك عسر عليك ، وإذا خرج خرج مشوه الصورة ، ناقص الحسن ، هذا وإنما يزيدك الطلب فرحا بالمعنى ، وأنسابه وسرورا بالوقوف عليه إذا كان لذلك أهلا ، وأمـــا إذا كنـــت معه كالغائص فى البحر يحتمل المشقة العظيمة ويخاطر بالروح ثم يخرج بالخرز.

(١) أسرار البلاغة ، شرح د. محمد خفاجى ص ٢٢٦ وما بعدها.

ولذلــك كان أحق أصناف التعقيد بالذم ما يتعبك ثم لا يجدى عليك ، ويؤرقك ثم لا يروض لك ، وما سبيله إلا سبيل البخيل الذى يدعوه لؤم فى نفســه وفســاد فى حسه إلى ألا يرضى بضعفه فى بخله ، وحرمان فضله حــتى يأبى التواضع ولين القول فيتيه ويشمخ بأنفه ، ويسوم المتعرض له بابا ثانيا من الاحتمال تناهيا فى سخفه ، أو كالذى لا يؤيسك من خيره فى أول الأمر فتستريح إلى اليأس لكنه يطمعك ويسحب على المواعيد الكاذبة حــتى إذا طال الغناء وكثر الجهد ، تكشف عن غير طائل ، وحصلت منه على ندم لتعبك فى غير حاصل ، وذلك مثل ما تجده لأبى تمام من تعسفه فــى اللفظ وذهابه به فى نحو من التركيب لا يهتدى النحو إلى إصلاحه ، وإغراب فى الترتيب يعمى الإعراب فى طريقه ويضل فى طريقه كقوله :

ثانــية فــى كــبد السماء ولم يكن كاثنيــن ثــان إذ همــا فــى الغار

"ثــان ، صــحتها : ثانيا لأنها خبر يكن ، وقدم المضاف عليه على المضــاف وقرنه بالكاف بغير داع ، والمعنى : ولم يكن ثانى اثنين إذ هما فــى الغــار ، والبيت قيل فى الأفشين القائد التركى الذى كان ثانى اثنين صلبا بأمر المعتصم".

ثم يقول عبد القاهر – بعد أن يوازن بين المعانى الجيدة والتى تحتاج إلى فكر وبين التعقيد – وأرادوا بقولهم "عن الكلام البليغ" ما كان معناه إلى قلــبك أســبق مــن لفظه إلى سمعك ، أن يجتهد المتكلم فى ترتيب اللفظ وتهذيــبه، وصــيانته مــن كل ما أخل بالدلالة ، وعاق دون الإبانة ، ولم يــريدوا : أن خير الكلام ما كان غفلا مثل ما يتراجعه الصبيان ويتكلم به

العامـــة فى السوق ، والمعانى الشريفة لا بد فيها من بناء ثان على أول ، ورد تال إلى سابق ، ثم يقولك : والمعقد من الشعر والكلام لم يذم لأنه مما تقـــع حاجـــة فيه إلى الفكر على الجملة ، بل لأن صاحبه يعثر فكرك فى متصرفه ، ويشيك طريقك إلى المعنى ويوعر مذهبك نحوه ، بل ربما قسم فكرك ، وشعب ظنك ، حتى لا تدرى من أين تتوصل ، وكيف تطلب.

ويقـــول مـــا دحا الكلام المرتب الألفاظ الواضح الدلالة (الخالى من التعقيد) وأما الملخص فيفتح لفكرتك الطريق المستوى ويمهده وإن كان فيه تعـــاطف أقام عليه المنار ، وأوقد فيه الأنوار ، حتى تسلكه سلوك المتبين لجهـــته ، وتقطعـــه قطع الواثق بالنجاح فى طيته ، فترد الشريعة زرقاء ، والروضـــة غناء ، فتنال الرى وتقطف الزهر الجنى ، وهل شئ أحلى من الفكرة إذا صادفت نهجا مستقيماً ، ومذهبا قويما.(١)

ويمكـــن الاحـــتراز عـــن التعقيد المعنوى بإتقان علم البيان والإلمام بمســـائله والوقـــوف على كنايات العرب واستعاراتهم ومعرفة ما جاد منها ومـــا قـــبح ، وقد ظهر مما تقدم : أن المقصود بفصاحة الكلام تكونه من كلمات فصيحة يسهل نطقها بدون تعسر لتآلفها وانسجامها ، كما يسهل على العقـــل إدراك معانيها لترتب ألفاظها على حسب ترتيب معانيها ، والمرجع فى ذلك هو الذوق السليم والإلمام بقواعد النحو وأصوله بحيث يكون الكلام واضح المعنى سهل اللفظ حسن السبك.

---

(١) أسرار البلاغة ٢٦٦ – ٢٧٥ تحقيق د. خفاجى.

فصاحة المتكلم:

ملكـــة يقتدر بها صاحبها على التعبير عن المقصود بكلام فصيح فى أى غرض كالمدح والذم والوصف .. إلخ.

والملكة : كيفية وصفة من العلم راسخة فى النفوس وثابتة ، فلو عبر عـــن المقصـــود بلفظ فصيح من غير رسوخ ذلك فيه لا يسمى فصيحا فى الاصطلاح ، وقيل يقتدر دون يعبر للإشعار بأنه يسمى فصيحا سواء وجد التعبـــير مـــنه أو لـــم يوجـــد ، لأن المدار على الاقتدار على التعبير عن المقصـــود بحيـــث لو كان شاعرا اتسع أمامه ميدان القول فى جميع فنون الشـــعر وإن كـــان ناثرا صاغ الرسائل الجميلة والخطب الممتعة فى شتى الأغراض.

ثانياً : معنى البلاغة :

يقصد بها تأدية المعنى واضحا بعبارة صحيحة فصيحة لها فى النفس أثـــر خـــلاب مـــع ملائمـــة كل كلام للموطن الذى يقال فيه والأشخاص المخاطبيـــن بـــه ، وهى فى اللغة : تنبئ عن الوصول والانتهاء ، يقال : بلغـــت الغايـــة إذا انتهيـــت إليها ، وبلغ فلان مراده إذا وصل إليه ، وبلغ الركـــب المدينة إذا انتهى إليها ، ومبلغ الشئ منتهاه وغايته ، والمبالغة فى الشـــئ : الانـــتهاء إلى غايته ، ومن هنا سميت البلاغة بلاغة لأنها تنهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه فيقال :

بلغ الرجل بلاغة فهو بليغ إذا أحسن التعبير عما فى نفسه.[1]

(١) انظر القاموس المحيط ١٠٦/٣.

وتقـــع البلاغة فى الاصطلاح وصفا للكلام وللمتكلم ولا توصف بها الكلمة المفردة لقصورها عن الوصول بالمتكلم إلى غرضه.

بلاغة الكلام:

الكـــلام البلـــيغ هـــو الـــذى يصوره المتكلم بصورة تناسب أحوال المخاطبيـــن ، ولذلـــك يعـــرف العلماء بلاغة الكلام : بأنها مطابقة الكلام لمقتضى حال المخاطب مع فصاحته ، ومقتضى الحال مختلف لأن مقامات الكلام متفاوتة ، فالمقام الذى يناسبه تنكير المسند إليه يغاير مقام تعريفه ، كمـــا أن مقام تقديم المسند إليه أو المسند يباين مقام تأخيره ، ولبيان معنى الحال ومقتضى الحال نقول :

الحال أو المقام : هو الأمر الحامل للمتكلم على أن يورد كلامه على صورة مخصوصة دون أخرى ، بأن يعتبر مع الكلام الذى يؤدى به أصل المعنى خصوصية زائدة عن هذا الأصل ، وتلك الخصوصية هى ما يعرف بمقتضى الحال.

مقتضـــى الحال : هو ما يدعو إليه الأمر الواقع أى ما يستلزمه مقام الكـــلام وأحـــوال المخاطب من التكلم على وجه مخصوص ، ولن يطابق الحال إلا إذا كان وفق عقول المخاطبين واعتبار طبقتهم فى البلاغة وقوتهم فـــى البيان والمنطق ، فللسوقة كلام لا يصلح غيره فى موضعه ، ولسراة القـــوم والأمـــراء فن آخر لا يسد مسده سواه ، من أجل ذلك كانت مراتب الـــبلاغة مـــتفاوتة بقدر تفاوت الاعتبارات والمقتضيات ، وبقدر رعايتها

يــرتفع شـــأن الكـــلام فى الحسن والقبح ويرتقى إلى درجة تنقطع عندها الأطمـــاع ، وتخـــور القوى ، ويعجز الإنس والجن أن يأتوا بمثله ، وتلك مرتبة الإعجاز التى تخرس عندها ألسن الفصحاء.

فالمقتضـــى ويســـمى الاعتبار المناسب : هو الصورة المخصوصة الـــتي تـــورد عليها العبارة فمثلا : المدح حال يدعو لا يراد العبارة على صـــورة الإطـــناب ، وذكاء المخاطب حال يدعو إلى إيرادها على صورة الإيجاز ، فكل من المدح والذكاء حال ومقام ، وكل من الإطناب فى المدح والإيجـــاز مـــع الذكـــاء مقتضى ، وإيراد الكلام على صورة الإطناب أو الإيجاز مطابقة للمقتضى ، وكذا إنكار المخاطب للحكم حال يقتضى تأكيد الحكم ، والتأكيد حينئذ هو مقتضى هذا الحال ، ومن ثم يكون معنى مطابقة الكـــلام لمقتضى الحال : أن الحال إن اقتضى التأكيد جئنا بالكلام مؤكدا ، كقولنا لمن ينكر نجاح محمد : إن محمدا قد نجح ، وإن اقتضى عدم التأكيد جئنا بالكلام خاليا من المؤكدات كقولنا لخالى الذهن : محمد قدم من السفر وهكذا.

فالمـــراد بالمطابقة لمقتضى الحال : اشتمال الكلام على الخصوصية الـــزائدة علـــى أصل المعنى ليناسب حال المخاطب ، ويشترط مع مطابقة الكلام لمقتضى الحال : كونه فصيحا ، لأن الكلام لو طابق مقتضى الحال وكان مع ذلك مخالفا لشروط الفصاحة كتنافر حروف الكلمة أو غرابتها ، أو اشـــتمل على تعقيد مثلا لا يسمى فى تلك الحالة بليغا لعدم تحقق شرط الفصاحة فيه ، فالبلاغة إذن تتحقق بالمطابقة والفصاحة معا ، وهى ليست

منحصرة فى إيجاد معان جليلة ، ولا فى اختيار ألفاظ واضحة جزيلة ، بل تتـناول مع هذين الأمرين أمراً ثالثاً هو إيجاد أساليب مناسبة للتأليف بين تلك المعانى والألفاظ مما يكسبها قوة وجمالا.

ولتلخـيص ما سبق نقول : إن الأمر الذى يحمل المتكلم على إيراد كلامه فى صورة دون أخرى يسمى حالا ، وإلقاء الكلام على هذه الصورة التى اقتضاها الحال يسمى مقتضى ، والبلاغة : مطابقة الكلام الفصيح لما تقضـيه الحال ، وارتفاع شأن الكلام فى الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب ، وانحطاطه بعدم مطابقة الكلام للاعتبار المناسب.(١)

بلاغة المتكلم:

هـى ملكة فى النفس يقتدر بها صاحبها على تأليف كلام بليغ مطابق لمقتضى الحال مع فصاحته فى أى معنى قصده ، وتلك غاية لن يصل إليها إلا من أحاط بأساليب العرب وعرف سنن تخاطبهم فى مناظراتهم ومديحهم وشكرهم ... إلخ ليلبس لكل حالة لبوسها.

ولا بد للبليغ من التفكير فى المعانى التى تدور فى خلده بحيث تكون صـادقة ذات قيمة وقوة ليظهر فيها أثر الابتكار وسلامة النظر مع تنسيق المعـانى وحسن ترتيبها ، فإذا تم له ذلك اختار الألفاظ الواضحة المؤثرة الملائمة للغرض فألف بينها تأليفا يكسبها جمالا وقوة.

---

(١) انظر المطول ٢٦ ، ٢٧.

فالبلاغة ليست فى اللفظ وحده ولا فى المعنى وحده ولكنها أثر لازم لسلامة تألف اللفظ والمعنى وحسن انسجامهما.

وبالــنظر إلــى معنى البلاغة والفصاحة نجد أن البلاغة أخص من الفصــاحة لأن الفصاحة مأخوذة فى تعريف البلاغة ، وأن البلاغة يتوقف حصولها على أمرين : (هما ثمرتها).

الأول : الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المقصود.

والــثاني: تميــيز الكلام الفصيح من غيره ليحتذى الفصيح ويتجنب غيره.

ولذلــك كان للبلاغة درجات متفاوتة تعلو وتسفل فى الكلام بنسبة ما تــراعى فــيه مقتضــيات الحال ، وعلى مقدار جودة ما يستعمل فيه من الأساليب فى التعبير والصور البيانية والمحسنات البديعية ، وأعلى درجات البلاغة ما يقرب من حد الإعجاز وأسفلها ما إذا غير الكلام عنه إلى ما هو دونــه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات وإن كان صحيح الإعراب ، وبين هذين الطرفين مراتب عديدة بقدر ما يراعى من مقتضى الحال.

الفرق بين الفصاحة والبلاغة : يفرق بينهما من وجوه :

١- إن الفصــاحة مقصورة على وصف الألفاظ والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعانى.

٢- إن الفصاحة تكون وصفا للكلمة والكلام ، والبلاغة لا تكون وصفا للكلمة بل تكون للكلام.

٣- وأن فصاحة الكلام شرط لبلاغته ، فكل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغا ، كالذى يقع فيه الإسهاب حين يجب الإيجاز ، فهذا مع فصاحته لا يعد بليغا لعدم مراعاة مقتضى الحال.

ومطابقة الكلام لمقتضى الحال هو ما يسميه الشيخ عبد القاهر بالنظم حيث يقول : النظم هو توخى معانى النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التى يصاغ لها الكلام ، ويشرح ذلك بقوله : ليس النظم إلا أن تضع كلامك الموضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه ، مثل أن تنظر فى الخبر مثلا إلى الوجوه التي تراها ، مثل : زيد منطلق ، وزيد ينطلق ، وينطلق زيد ، وزيد المنطلق ، والمنطلق زيد ، وزيد هو المنطلق .. وكذا فى الشرط والجزاء وغيرها .. فتعرف لكل ذلك موضعه ، وتجئ به حيث ما ينبغي له.

وتنظر إلى الحروف التى تشترك فى معنى تنفرد كل منها بخصوصية فى ذلك المعنى فتضع كلاً من ذلك فى خاص معناه ، نحو أن تأتى بـ "ما" فى نفى الحال، و "بلن" فى نفى الاستقبال، و "بإن" فيما يترجح بين أن يكون وبين ألا يكون، و "بإذا" فيما علم أنه كائن، وتنظر فى الجمل فتعرف موضع الفصل من موضع الوصل، وفى الوصل موضع الواو من الفاء، والفاء من ثم، وتنظر فى التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والحذف والتكرار، والإظهار والإضمار فتصيب بكل من ذلك مكانه، وتستعمله على الصحة وعلى ما ينبغى له.

ثم ليس هذه الأمور المذكورة من التعريف وغيره راجعة إلى الألفاظ أنفسـها ولكن تعرض لها بسب المعانى والأغراض التى يصاغ لها لكلام بحسـب موقع بعضها من بعض ، واستعمال بعضها مع بعض فرب تنكير مثلا له مزية فى لفظ وهو فى لفظ آخر فى غاية القبح.(١)

وتنحصر البلاغة فى علوم ثلاثة :

أحدهـا : ما يحترز به عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد وتمييز الفصيح مـن غـيره وهـو المعروف بعلم المعانى وأبوابه ومباحثه التى ستعرفها.

والثانى :ما يحترز به عن التعقيد المعنوى وما يتعلق به وهو المعروف بعلم البيان.

والثالـث : مـا يعرف به وجوه تحسين الكلام وهو المعروف بعلم البديع

وكثير من الناس يسمى هذه العلوم الثلاثة "علم البيان" باعتبار أن تلك العلوم وإتقانها يؤدى إلى تصنيف كلام جيد بين المعنى واضح الدلالة على المراد: وبعض يسمى الجميع "علم البديع" باعتبار ما يترتب على هذه العلوم من الإبداع فى القول وتضمن الكلام الكثير من اللطائف والطرائف المعجبة.

هـذا وترتبط البلاغة بكثير من علوم اللغة العربية الأخرى وبخاصة علـم متن اللغة لأن عن طريقه يعرف الغريب من غيره ، وعلم الصرف الذى يعرف به مخالفة القياس ، وعلم النحو الذى يعرف به ضعف التأليف وغير ذلك من العلوم الأخرى التى تفيد البليغ فى نظمه.

(١) دلائل الإعجاز وانظر المطول ٢٥ – ٣١.

علم المعاني

تعريفه – موضوعه – فائدته –
مباحثه ـ أحوال الإسناد الخبري –
إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر
ـ المجاز العقلي – أحوال المسند إليه –
أحوال المسند – أحوال متعلقات الفعل

علـــم المعـــانـــى

تعريف علم المعانى :

"علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال" ، والمـــراد بالعلم : القواعد المحددة الواضحة ، أو يراد به الملكة التى يقتدر بها على إدراكات جزئية ، وأحوال اللفظ العربى هى :

الأمـــــــور التى تعـــرض له من التقديم والتأخير والفصل والوصل والحذف والذكر .. إلخ.[1]

موضوع علم المعانى :

اللفـــظ العـــربى من حيث إفادته المعانى الثوانى التى هى الأغراض المقصـــودة للمـــتكلم ، مـــن جعـــل الكـــلام مشـــتملا على تلك اللطائف والخصوصيات التى بها يطابق مقتضى الحال.

فائدة دراسة علم المعانى :

١- معرفة إعجاز القرآن الكريم من جهة ما خصه الله به من جودة السبك وحســـن الوصف وبراعة التراكيب ، ولطف الإيجاز وما اشتمل عليه من سهولة التركيب وجزالة كلماته ، وعذوبة ألفاظه وسلامتها.

٢- الوقـــوف علـــى أسـرار الـبلاغة والفصاحة فى منثور كلام العرب ومـــنظومة كـــى نحـــتذى حذوه ونتسج على منواله ، ونفرق بين جيد الكلام ورديئة.

---

(١) أنظر المطول ٣٤.

مباحث علم المعاني :

ينحصر علم المعاني فى ثمانية أبواب هى :

أحـوال الإسـناد الخـبرى – أحوال المسند إليه – أحوال المسند – أحـوال متعلقات الفعل – القصر – الإنشاء – الفصل والوصل – الإيجاز والإطناب والمساواة.

ركنا الجملة :

للجملة ركنان أساسيان وهما :

١– المسـند ويسـمى محكوما به أو مخبرا به ، ويتمثل فى : خبر المبتدأ والفعل التام ، واسم الفعل نحو هيهات ، وأخبار النواسخ – كخبر كان وإن – والمفعـول الـثانى لظن وأخواتها ، والمفعول الثالث لأرى ، والمصدر النائب عن فعل الأمر نحو سعيا فى الخير.

٢– المسند إليه ويسمى محكوما عليه أو مخبرا عنه ، ومواضعه : الفاعل والمبـتدأ الذى له خبر ، وأسماء النواسخ مثل : كان وإن وأخواتهما ، والمفعـول الأول لظن وأخواتها ، والمفعول الثانى لأرى وأخواتها ، ونائب الفاعل.

وأمـا النسـبة التى بين المسند والمسند إليه فتسمى إسناداً ، وما زاد على المسند والمسند إليه من مفعول وحال وتمييز وغير ذلك فهو زائد على تكويـن الجملة فيما عدا صلة الموصول والمضاف إليه ويسمى هذا الزائد متعلقات الفعل.

تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء :

ينقسم الكلام إلى قسمين :

أ-**الخبر** : وهو الكلام الذى يحتمل الصدق والكذب لذاته ، أى بقطع النظر عـن خصـوص المخـبر أو خصوص الخبر ، وإنما ينظر فى احتمال الصـدق والكـذب إلى الكلام نفسه لا إلى قائله ، وذلك لتداخل الأخبار الواجبة الصدق – كأخبار الله تعالى وأخبار رسله – والبديهيات المسلمة إن صـدقا وإن كذبا مثل ك السماء فوقنا والأرض تحتنا ، وعكس ذلك أيضاً ، ولتدخل الأخبار الواجبة الكذب كأخبار مدعى النبوة.

ويمكن أن يقال فى تعريف الخبر : هو ما يتحقق مدلوله في الخارج بدون النطق به ، نحو العلم نافع ، فقد أثبتنا صفة النفع للعلم ، وتلك الصفة ثابـتة له سواء تلفظنا بالجملة السابقة أم لا ، لأن نفع العلم أمر حاصل فى الحقـيقة والواقـع وإنما أنت تحكى ما اتفق عليه الناس قاطبة وقضت به الشرائع دون نظر إلى إثبات جديد.

ب-**الإنشـاء** : وهـو الكلام الذى لا يحتمل الصدق ولا الكذب لذاته نحو اضْرِبْ واكتب ، فلا ينسب إلى قائله صدق أو كذب ، ومعنى لذاته : أى بقطع النظر عما يستلزمه الإنشاء ، فإن لا تلعب يستلزم خبرا وهو : أنا طالب عدم لعبك، لكن هذا ليس لذاته.

والإنشاء قسمان : طلبى وغير طلبى.

فالطلـــبى : مـــا يستدعى مطلوباً غير حاصل وقت الطلب كالأمر والنهى والنداء والتمنى والاستفهام ..

وغـــير الطلبى : ما لا يستدعى مطلوبا غير حاصل وقت الطلب ، ويكون بصيـــغ المدح والذم ، وصيغ العقود ، والقسم والتعجب والرجاء وغيرها.

صدق الخبر وكذبه :

للعلمـــاء في صدق الخبر وكذبه مذاهب متعددة ، وسنكتفى من ذلك بعـــرض لـــرأى الجمهور إجمالا ، ومضمونه : أن صدق الخبر مطابقته للواقـــع ونفس الأمر ، وكذبه عدم مطابقته له ، فجملة العلم نافع ، إن كانت نســـبته الكلامية – وهى ثبوت النفع للعلم المفهومة من تلك الجملة مطابقة للنسبة الخارجية ، بمعنى أنها موافقة لما فى الخارج والواقع فصدق ، وإلا فكـــذب نحو : الجهل نافع ، فنسبته الكلامية ليست مطابقة وموافقة للنسبة الخارجـــية ، فمطابقـــة النسبة الكلامية للنسبة الخارجية ثبوتا ونفيا صدق وعدم المطابقة كذب.

فالنســـبة التى دل عليها الخبر، وفهمت منه، تسمى كلامية ، والنسبة الـــتى تعـــرف مـــن الخارج – بقطع النظر عن الخبر – تسمى خارجية ، فهـــناك نســـبتان : نسبة تفهم من الخبر ويدل عليها الكلام وتسمى النسبة الكلامية ، ونسبة أخرى تعرف من الخارج بقطع النظر عن الخبر وتسمى النسبة الخارجية ، فما وافق الواقع فهو صدق وما خالفه فهو كذب.

أحوال الإسناد الخبرى

تعريف الإسناد الخبرى :

"ضـم كلمـة أو مـا يجـرى مجراها إلى كلمة أخرى أو ما يجرى مجـراها بحيـث يفيد الحكم بأن مفهوم إحداهما – المسند – ثابت لمفهوم الأخرى – نفس المسند إليه – أو منفى عنه ، نحو : الله واحد ، محمد ﷺ نبى ، فقد حكم فى المثالين بإسناد الوحدانية لله سبحانه والنبوة لمحمد ﷺ.

والإسـناد يتـنوع إلى أربعة أقسام، لأن المسند والمسند إليه إما أن يكونا كلمتين حقيقة نحو : الله واحد – وإما أن يكونا كلمتين حكما نحو : لا إله إلا الله ينجو قائلها من النار ، أى توحيد الإله نجاة من النار – وإما أن يكـون المسـند إليه كلمة حكما والمسند كلمة حقيقة نحو : تسمع بالمعيدى خـير من أن تراه ، أى سماعك بالمعيدى خير من رؤيته – وإما بالعكس بـأن يكون المسند إليه كلمة حقيقة والمسند كلمة حكما نحو : الأمير قرب قدومه أى الأمير قريب قدومه.

الأغراض التى من أجلها يلقى الخبر :

الأصل فى الخبر أن يلقى على السامع لأحد غرضين :

أ–إمـا إفادة المخاطب الذى تضمنته الجملة إذا كان جاهلا له لا يعلمه ، ويسـمى هـذا الـنوع فائدة الخبر ، نحو: نجح محمد ، الدين المعاملة ، وعمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين لمن يجهل ذلك.

ب-وإمـــا إفـــادة المخاطب أن المتكلم عالم أيضا بأنه يعلم الخبر ، كقولك لرجل أخفى عليك ترقيته – وعلمت ذلك من طريق آخر – أنت صرت مديرا ، أو قولك لتلميذ أخفى عليك نجاحه وعلمت ذلك من غيره – أنت نجحـــت فى الامتحان ، وكقولك لمن زيد عنده – ولا يعلم أنك تعلم ذلك – زيد عندك ، ويسمى هذا النوع لازم الفائدة لأنه يلزم فى كل خبر أن يكون المخبر به عنده علم أو ظن به.

وهذان الغرضان أساسيان فى الجملة الخبرية، ولكن قد يخرج الخبر عنهما إلى أغراض بلاغية أخرى تستفاد بالقرائن، ومن سياق الكلام ، لأننا نرى فى الكلام لعربى أخبارا كثيرة لا يقصد بها إفادة المخاطب الحكم ولا أن المتكلم عالم بذلك ، ومن هنا تكون قد خرجت عن معناها الأصلى إلى أغراض أخرى نتكلم عنها فيما يأتى :

الأغراض التى يخرج إليها الخبر عن معناه الأصلى :

١-إظهـــار الخشوع والضعف ، كقوله تعالى – حكاية عن سيدنا زكريا – عليه السلام – ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾[١] فالله سبحانه وتعالى يعلم بضعفه لكنه أراد أن يظهر ضعفه وخشوعه أمام الله سبحانه ، ومنه قول الشاعر :

إلهـــى عـــبدك العاصـــى أتاكـــا   مقـــرا بـــالذنوب ، وقـــد دعاكـــا

---

(١) سورة مريم ٤.

فـــالمولى ســـبحانه وتعـــالى يعلم بعصيانه وتوبته لكنه يقصد إظهار الخشوع والضعف لله وحاجته إلى عفوه، ومنه قول الشاعر :

إن الثمانيــــــن – وبلغـــــتها – قـــد أحوجــت سمعى إلى ترجمان

وقوله :

قـــد كنــت عدتــى الــتى أسطو بها ويـــدى إذا اشتد الزمان وساعدى

فالخبر في كل ما تقدم ليس مرادا به إفادة المخاطب الحكم ولا إفادته أن المتكلم يعلم الحكم وإنما المقصود إظهار الخشوع والضعف.

٢-إظهار التحسر على شئ محبوب ، نحو قوله تعالى – حكاية عن امرأة عمــران – ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾[١] فالله عز وجل يعلم أنها وضعت أنثى لكنها تظهر تحسرها على ذلك لأنها كانت ترجو أن يكون مولودها ذكــرا لتهبه لخدمة البيت كما فى قولها ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾[٢] والمعروف أن التحرير لا يكون إلا للذكور ، والمعنى : أن مــا طلبته. – وهو كون المولود ذكرا – غير ما جاء – وهو كونه أنثى – لذلــك أظهــرت تحسرها، وقد أراد الله لتلك الأنثى أن تأتى بمعجزة وهو عيسى عليه السلام ومن ثم فما أراده الله لابنتها خير مما تمنته من الذكورة ليخدم بيت المقدس ومن ذلك قول الشاعر:

جــار الــزمان فــلا جــواد يرتجى للنائـــبات ولا صـــديق يشـــفق

---

(١) سورة آل عمران ٣٦.

(٢) سورة آل عمران ٣٥.

فهـو لا يقصـد الإخبار بذلك لكنه يريد أن يظهر تحسره على جور الـزمان وفقد الكرام ، والأصدقاء من الناس ولذلك تلم به النوائب من كل جانب.

٣-**التحزن والتفجع** : وذلك كقول الشاعر :

قومـي هـم قتلوا – أميم – أخى فـإذا رميـت يصـيبنى سـهمى

فالشـاعر لا يريد إخبارنا بأن قومه القاتلون لأخيه وإنما يريد إظهار حـزنه وتفجعـه بسبب هذا الحادث لأن القتيل والقاتل منه فلا يستطيع أن يقـتص من القاتل لأن ذلك يؤلمه لكون المقتص منه من قومه فكأنه يقتص من نفسه.

٤-**الاسـترحام والاسـتعطاف** : كقولك : إني فقير إلى عفو ربي ، فليس المـراد إفادة المخاطب هذا الحكم أو لازمه ولكنه لطلب العفو والرحمة من الله سبحانه.

ومن ذلك إظهار الضراعة كما فى قول كعب بن زهير.

انبئـت أن رسـول الله أوعدنـي والعفـو عـند رسـول الله مأمول

فالشـاعر لا يريد الإخبار بإيعاد النبى ﷺ له لكنه يريد أن يتضرع للنبى ويسترحمه ليعفو عنه.

٥-تحـريك الهمـة إلـى مـا يلزم تحصيله نحو قولك : ليس سواء عالم وجهـول، وقـول الرسول ﷺ: "عدل ساعة فى حكومة خير من عبادة ستين سنة"، فليس المراد من المثال الأول الإخبار عن عدم التساوى بين

العـــالم والجـــاهل لكـــن المراد حث المخاطب على تحصيل العلم وليس المـــراد كذلـــك مـــن قول النبى ﷺ مجرد الأخبار لكن الهدف هو حث الحاكمين على العدل وتطبيقه ونشره بين جميع الناس.

٦-الهجاء كقول جرير :

لقـــد ولـــدت أم الفـــرزدق فاجـــرا وجـــاءت بـــوزواز قصير القوائم

٧-**بـــيان التفاوت فى المراتب** ، كقولك : لا يستوى كسلان ومجد ، وقوله تعـــالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١) وقوله ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾.(٢)

٨-**التوبـــيخ كقولك للعاثر** : الشمس طالعة ، فأنت لا تريد إخباره بطلوع الشمس لكنك تريد أن توبخه على عثرته مع أن الشمس طالعة وكل شئ ظاهر أمامه.

وقولـــك للغـــنى المستجدى : عندك المال الوفير ، فأنت لا تريد أن تعلمـــه بأنك تعرف أن عنده مالا وفيرا لكنك تقصد توبيخه على استجدائه مع كثرة ماله.

---

(١) سورة الزمر آية ٩.

(٢) سورة فاطر ١٩ - ٢٢.

٩-**الفخـــر** ، كقولـــك : إنـــى أعرف العميد ، إنى أجلس مع الوزير فليس المـــراد الإخـــبار بأنك تعرف عميد الكلية وبجلوسك مع الوزير ، ومنه قول النبى ﷺ (إن الله اصطفاني من قريش) ، فالنبى ﷺ يفتخر بكونه من قريش ، ومنه قول أبى فراس :

ومكـــارمى عـــدد الـــنجوم ومنزلى مـــأوى الكـــرام ومـــنزل الأضياف

وقوله :

منعـــت حمى قومى وسدت عشيرتى وقلـــدت أهلـــى غـــر هذى القلائد

فهـــو لا يريد إخبارنا بما ذكره فى البيتين لكنه يريد أن يتجاوز ذلك إلى الافتخار بأنه يملك تلك الصفات.

١٠-**المدح** كقول الشاعر :

فـــإنك شـــمس والملـــوك كواكـــب إذا طلعـــت لـــم يـــبد منهن كوكب

وقول ابن حيوس :

بـــنى صـــالح اقصـــدتم مـــن رميتم وأحييـــتم مـــن أم معروفكم قصدا

وذللـــتم صـــعب الـــزمان لأهلـــه فـــذل وقـــد كـــان الجماح له وكدا

مناقـــب لـــو أن اللـــيالى توشـــحت بأذيالهـــا لا بيض منهن ما اسودا

١١-**التهديد** : قوله تعالى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(١) هذا ولا تقتصر أغـراض الخبر على ذلك وإنما يمكن استخراج غيرها من الأغراض عن طريق الذوق والعقل السليم كإظهار الفرح والرثاء وغير ذلك.

صور الخبـر (أضرب الخبـر) :

نتكلم هنا عن كيفية إلقاء المتكلم الخبر للمخاطب ، لأن المقصود من الكلام دائما هو الإفصاح والإظهار ، ولذلك وجب على المتكلم أن يراعى حال المخاطب بحيث يعطيه من العبارات ما يتناسب معه ، لأن حق الكلام أن يكـون بقـدر حاجة المخاطب فلا يزيد عنها حتى يوصف بالعبث ولا ينقص عنها فيخل بالغرض.

ولهـذا تختلف صور الخبر فى أساليب اللغة باختلاف حال المخاطب وحاجته إلى التأكيد أو عدمه ، ويأتى ذلك فى صور ثلاث:

١-فإن كان المخاطب خالى الذهن من الخبر لا يعلم عنه شيئا غير متردد فيه ولا منكر له القى إليه الكلام بلا تأكيد لعدم الحاجة إليه ، كقولك لمن لا يعلـم بقـدوم علـى من السفر : قدم على من السفر ، ولمن لا يعلم بظهور نتيجة الامتحان ظهرت نتيجة الامتحان ، وكقوله تعالى ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(٢) ويستعمل هذا الضرب حين يكون المخاطب

(١) سورة هود آية ١٢٣.

(٢) سورة الكهف ٤٦.

خالي الذهن من مدلول الخبر فيتمكن منه لأول وهلة لمصادفته إياه خالياء، قال الشاعر :

أتـــانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصـــادف قلـــبا خالـــيا فتمكـــنا

ويسمى هذا الضرب من الخبر ابتدائياً.

٢-وإن كـــان المخاطب مترددا فى الخبر طالبا الوصول لمعرفته والوقوف على حقيقته حسن تقوية الحكم بمؤكد واحد دفعا لهذا التردد ليتمكن الحكم من نفسه، كقولك لمن شك فى نجاح محمد :

إن محمـــدا نجـــح ، وقولـــك : إن الأمـــير منتصر ، لمن تردد بين انتصـــاره وهزيمـــته ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾[1] فالتأكـــيد فـــى الآيات جاء من تكرار (جعلنا) أما فى المثالين فالأداة المؤكدة أن ، ومن ذلك قول الشاعر :

ان الغـــنيَّ مبيـــن الـــرجال مُكـــرَّمٌ وتـــراه يـــرجى مـــا لديه ويرغب

جـــاء التأكـــيد فى البيت بأن واسمية الجملة لدفع الشك والتردد من المخاطب فى الحكم الذى هو كون الغنى من الرجال مكرم من غيره.

ويسمى هذا لضرب من الخبر طلبيا ، ويستعمل حين يكون المخاطب شاكاً فى مدلول الخبر طالبا التثبت من صدقه.

---

(١) سورة النبأ ٩ – ١١.

٣-وان كـــان المخاطب منكرا للخبر الذى يراد إلقاؤه إليه ، معتقدا خلافه أكد له الكلام بمؤكدين أو أكثر على حسب حاله من الإنكار ودرجة هذا الإنكـــار فى القوة والضعف ، نحو إنى ناجح لمن ينكر نجاحك ، وإنى لـــناجح لمـــن يزيد فى إنكاره ، والله إنى لناجح لمن يبالغ جداً فى هذا الإنكـــار ، ومـــنه قولـــه تعـــالى: ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[1] ، فقـــد أكدوا كلامهم بلام القسم ولام التوكيد ونونه وذلك لأنهم يعرفون أن الله سبحانه يعلم جيدا أنهم منكرون لنعمه كافرون بها ، ولذا كان الشكر منهم والاعتراف بالوحدانية بعيدا فأكدوا كلامهم.

ويســـمى هـــذا الضـــرب مـــن الخبر إنكارياً ، ويستعمل حين يكون المخاطب منكراً للحكم.

ومـــن أبرز الأمثلة على تفاوت التأكيد حسب درجة الإنكار ما حكاه الله ســـبحانه وتعالى عن رسل عيسى – عليه السلام – الذين أرسلهم إلى قومه فأنكروا رسالتهم فى قوله سبحانه ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (يس آية ١٣)

إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ) (يـــس:١٤)

قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ) (يـــس:١٥)

---

(١) سورة يونس ٢٢.

﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ (يـس:١٦) فلما كان إنكارهم للرسل أقـل فى المرة الأولى ردوا عليهم بقولهم ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ مؤكدين الكـلام بمؤكديـن إن واسمية الجملة ، ولما ازداد إنكارهم وتكذيبهم ازداد تأكيد الخبر لهم فقالوا ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ مؤكدين كلامهم بأن واللام واسمية الجملة وتقديم الجار والمجرور على متعلقة.

والتمييز بين الأضرب الثلاثة ليس بالأمر الهين ، فقد وجدنا يعقوب بن إسحاق الكندى الفيلسوف قد أشكل عليه هذا الأمر حين سأل أبا العباس محمـد بن يزيد المبرد ، صاحب كتاب الكامل قائلا : إنى أجد فى كلام العـرب حشوا ، يقولون : عبد الله قائم ، وإن عبد الله قائم ، وان عبد الله لقائم ، والمعنى واحد؟ فأجابه المبرد بما يدفع هذه الشبهة فقال : بل المعانى مختلفة ، فعبد الله قائم إخبار عن قيامه ، وإن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل ، وإن عبد الله لقائم رد على إنكار منكر.

هذا ومما يجب التنبيه عليه : أن التأكيد كما يكون فى الإثبات يكون فـى الـنفى نحو ما المقتصد بمفتقر ، ووالله ما المستشير بنادم ، ووالله ما الكسـول بناجح ، وهكذا ، كما أن الخبر قد يؤكد لشرف الحكم وتقويته مع أنـه ليس فيه تردد ولا إنكار ، كقولك فى افتتاح كلام : إن أفضل ما نطق به اللسان كتاب الله.

كمـا أن التأكـيد فى هذا الباب تأكيد الحكم لا تأكيد المسند إليه ولا المسـند ، وان لتوكيد الخبر أدوات كثيرة منها : إن وأن ، ولام الابتداء – وهـى الداخلة على المبتدأ واللاحقة للخبر – وأحرف التنبيه – مثل ألا –

والقســـم ، ونونا لتوكيد ، والتكرار والحروف الزائدة – كتفعل واستفعل – وقـد ، وأمـا الشرطية ، وإنما ، وضمير الفصل ، واسمية الجملة ، لأن الخطاب بالاسمية وحدها آكد من الخطاب بالجملة الفعلية ، فإذا أريد مجرد الإخبار أتى بالفعلية ، وإن أريد التأكيد أتى بالإسمية وحدها أو بها مع أن ، أو بهما واللام ، أو بالثلاثة والقسم.

وإخراج الكلام وروده على الأضرب الثلاثة السابقة يسمى إخراجا علـى مقتضـى ظاهـر الحال ، وقد تقتضى الأحوال العدول بالكلام عن مقتضـى الظاهـر فيجئ الكلام على خلافه لاعتبارات يراعيها المتكلم ، وسلوك هذا لطريق أمر يعتبره العلماء شعبة من البلاغة ، وإليك بيان ذلك:

إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر [١]

يتحقق هذا الإخراج في الصور الآتية :

١-تنزيل العالم بفائدة الخبر أو لازمها أو بهما معا منزلة خبره ، وذلك إنما يكـــون في حالات ثلاث : بأن ينزل العالم منزلة الجاهل (خالي الذهن) عدم جريه على موجب علمه فيلقى إليه الخبر كما يلقى إلى الجاهل به ، كقولـــك لمن يعلم وجوب الصلاة وهو لا يصلي الصلاة واجبة ، توبيخا له وإشارة إلى أنه لا يتصور تركها إلا من الجاهل ، وإن تارك الصلاة والجـــاهل ســـواء ، وكقولك لمن يعلم ضرر اللعب : اللعب يؤدي إلى الرسوب ، ولمن يؤذي أباه: هذا أبوك.

أو ينزل العالم منزلة المتردد ، فتقول إن الصلاة واجبة.

أو يـــنزل العـــالم منزلة المنكر فتقول له : والله إن الصلاة لواجبة ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾[٢] مؤكدا لهم بأن واسمية الجملة واللام مع علمهم بأن الموت آت لا تردد فيه ولا إنكار ، ومنه قول أبي نواس :

أمـــا يـــا ابـــن الذيـــن فنوا وبادوا   أمـــا والله مـــا ذهـــبوا لتـــبقى

---

(١) الحـــال : الأمـــر الداعي لا يراد الكلام مكيفا بكيفية ما ، سواء أكان ذلك الأمر ثابتا في الواقع أم كان ثبوته بالنظر إلى ما عند المتكلم كتنزيل المخاطب غير السائل منزلة السائل، وظاهـــر الحال : الأمر الداعي لإيراد الكلام مكيفا بكيفية مخصوصة بشرط أن يكون ذلك الأمر الداعي ثابتا في الواقع ، فكل كيفية اقتضاها ظاهر الحال اقتضاها الحال ، وليس كل كيفية اقتضاها الحال اقتضاها ظاهره.

(٢) سورة المؤمنون ١٥.

وقوله أيضاً :

ومـــا الـــناس إلا هـــالك وابن هالك وذو نســـب فـــى الهالكيـــن عريق

فقد أكد الكلام فى البيتين مع أن العلم بموت كل حى لا إنكار فيه ولا تـردد، لكـنه نزل العالمين بذلك منزلة المنكرين لعدم جريهم على موجب علمهم.

٢–تـنزيل خـالى الذهن منزلة السائل المتردد إذا تقدم فى الكلام ما يشير إلى حكم الخبر فيستشرف له استشراف السائل ، كما فى القرآن من قوله ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾(١) فمدخول إن مؤكد لمضمون مـا تقدمـه لإشـعاره بالـتردد فيما تضمنه مدخولها ، وكقوله سبحانه ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾(٢) فالله سبحانه لما أمر نوحـا – علـيه السـلام – أولا بصـنع الفلك ونهاه ثانيا عن مخاطبته بالشـفاعة فـى قومـه صار – مع كونه غير سائل – فى مقام السائل المتردد هل حكم الله عليهم بالإغراق؟ فأجيب بقوله (إنهم مغرقون) فقوله (ولا تخاطبنى) يشير إلى جنس الخبر وأنه عذاب، وقوله (أنهم مغرقون) يشـير إلـى خصـوص الخـبر الذى أشير إليه ضمنا فى قوله : ولا تخاطبنى، ومنه قول الشاعر :

تـرفق أيهـا المولـى علـيهم فـإن الـرفق بالجـانى عـتاب

---

(١) سورة يوسف ٥٣.

(٢) سورة هود ٣٧.

فالأصل أن يورد الخبر هنا خاليا من التأكيد لأن المخاطب خالى الذهن من الحكم لكن لما تقدم فى الكلام ما يشعر بنوع الحكم أصبح المخاطب متشوفا لمعرفته فنزل منزلة السائل المتردد الطالب ، واستحسن إلقاء الكلام إليه مؤكداً جريا على خلاف مقتضى الظاهر ومنه قوله تعالى ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾(١) فصدر الآية يشير إلى أن الخبر من جنس الخير والنفع فنزل الخالى وهو الرسول ﷺ منزلة السائل وقيل له (إن صلاتك سكن لهم).

٣-تنزيل غير المنكر منزلة المنكر إذا ظهر عليه شئ من أمارات الإنكار كقول حجل بن نضلة :

جاء شقيق عارضا رمحه إن بنى عمك فيهم رماح

فإن شقيقا لا ينكر رماح بنى عمه ولكن مجيئه على صورة المعجب بشجاعته واضعا رمحه على فخذيه بالعرض وهو راكب ، أو حاملا له عرضا على كتفه فى جهة العدو بدون اكتراثه به يعد بمنزلة إنكاره أن لبنى عمه رماحا وأنه لن يجد منهم مقاوما له ، كأنهم فى نظره عزل لا رماح معهم ، فأكد له الكلام استهزاء به ، كما خوطب خطاب التفات بعد غيبة تهكما به ورميا له بالسفه وخرق الرأى.

---

(١) سورة التوبة ١٠٣.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾[١] لما كانوا غافلين عن الموت نزلوا منزلة المنكرين فأكد لهم الكلام.

٤-تنزيل المتردد منزلة خالى الذهن ، كقولك للمتردد فى قدوم مسافر مع شهرته : قدم الأمير ، وكقولك للشاك فى نجاحه : نجحت.

٥-تنزيل المنكر منزلة خالى الذهن إذا كان لديه شواهد وأدلة لو تأملها لارتدع وزال عنه الإنكار ، كقوله تعالى ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[٢] فإن كل ما فى الوجود يدل على وحدانية الله سبحانه ، ولذا ترك التأكيد مع أنه خطاب للمنكرين للوحدانية ، وكقولك لمنكر الإسلام : الإسلام حق ، إشارة إلى أن الأدلة على أن الإسلام حق من الوضوح والظهور بحيث يدركها من له أدنى تأمل ، ويكون الإنكار مع هذه الأدلة كالعدم فلا يلتفت إليه ويجيء الكلام خاليا من التأكيد ، وفى هذا إضعاف لحجة الخصم ومن ذلك فى جانب النفى قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[٣] فانتفاء الريب عن القرآن أمر ينكره الكفار ، لكن وضوح الأدلة التى تفيد نفى الريب عنه جعلت إنكارهم كالعدم ، وكقولك لمن ينكر منفعة الطب :

الطب نافع بلا تأكيد ، لأن أدلة نفع الطب للناس واضحة فنزل منكر نفعه منزلة خالى الذهن.

---

(١) سورة المؤمنون ١٥.

(٢) سورة البقرة ١٦٣.

(٣) سورة البقرة ٢.

٦-تنزيل المنكر منزلة المتردد ، كقولك لمن ينكر شرف الأدب إنكارا ضعيفا : إن الجاه بالمال إنما يصحبك ما صحبك المال وأما الجاه بالأدب فإنه غير زائل عنك ، ويستعمل هذا إذا كانت أدلة الحكم من القوة بحيث توهن أسباب الإنكار ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾(١) فقد أكد إثبات البعث تأكيدا أقل وإن كان المشركون ينكرون، لأن وضوح أدلته توجب عدم إنكاره فكان على الناس إما أن يؤمنوا به وإما أن يسألوا عنه فنزل المخاطبون منزلة السائلين إشارة إلى ظهور الأدلة ليتأملوها.

---

(١) سورة المؤمنون ١٦.

المجــاز العـقلى

ويسمى أيضاً المجاز الحكمى والمجاز فى الإثبات والإسناد المجازى، وإنما سمى مجازا عقليا لأن التجوز فيه راجع إلى العقل لا إلى الوضع[١]، لأن إسناد الفعل إلى فاعله شئ يحصل بقصد المتكلم دون واضع اللغة.

وقــبل أن نـــتكلم عن المجاز العقلى ينبغى أن نذكر تعريف الحقيقة العقلـــية المقابلة له ، وهى : إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر ، والمراد بما في معنى الفعل : المصدر واسم الفاعل ، واسم المفعول والصفة المشبهة وأفعل التفضيل والظرف ، وهذا للاحتراز عما لا يكون المسند فيه فعلا أو في معنى الفعل ، كقولنا : الحيوان جسم ، ومعنى إلى ما هو له ، أى إلى شئ يكون ذلك الفعل له ، كالفاعل فيما بنى لـــه نحـــو : ضـــرب زيد عمرا ، والمفعول به فيما بنى له نحو : ضرب عمـــرو، وقوله : عند المتكلم فى الظاهر، أى يكون الإسناد إلى ما هو له عـــند المتكلم فيما يفهم من ظاهر كلامه ويدرك من ظاهر حاله بألا ينصب قريـــنة علـــى أنـــه غير ما هو له فى اعتقاده ، وقال : فى الظاهر ليشمل مـــا لا يطـــابق اعـــتقاده ممـــا يطـــابق الواقع وما لا يطابقه ، ومن أمثله الحقيقة قولك : شفى الله المريض وأنبت الله البقل ، وقوله سبحانه وتعالى

---

(١) وهو بخلاف النوع الآخر من المجاز الذى يرجع التجوز فيه إلى الوضع اللغوى للكلمة ، والمسمى بالمجاز اللغوى وهو : الكلمة المستعملة فى غير ما وضعت له فى اصطلاح به التخاطب على وجه يصح مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى ، كقولك : رأيت أسدا يخـــترق الصـــفوف ، أو بحرا يخطب الناس ، فالمجاز فى هذا راجع إلى نقل الكلمة من معناها إلى معنى آخر ، وأما ما نحن فيه فالمجاز راجع لإسناد الفعل لغير ما هو له.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ..﴾ .(١)

تعريف المجاز العقلي :

هـــو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له في الظاهر من حال المتكلم لملابسة مع قرينة صارفة للإسناد عن كونه إلى ما هو له.

ومعـــنى كونه إلى غير ما هو له : أنه ليس من حقه أن يسند الفعل إلـــيه لأنه ليس وصفا له ، ومعنى الملابسة : العلاقة التي بين المسند إليه المجازي والمسند إليه الحقيقي ، وهذا يشمل إسناد الفعل المبني للفاعل وما في معناه – كاسم الفاعل – إلى غير فاعله ، كالمفعول والمصدر والزمان والمكـــان والسبب مما له علاقة بالفاعل ، ويشمل أيضاً إسناد الفعل المبني للمفعـــول ومـــا في حكمه – كاسم المفعول – إلى غير نائب الفاعل مما له علاقة به كالفاعل والمصدر ، والقرينة : هي ما يصرف الإسناد عن كونه إلى ما هو له ، سواء كانت لفظية – بأن يذكر مع الإسناد لفظ يصرفه عن أن يكون مرادا به حقيقة الإسناد – أو معنوية ، بأن يكون مع الإسناد أمر معنوي يصرفه عن ظاهره – كاستحالة قيام المسند بالمسند إليه أو صدوره منه عقلا أو عادة – أو ما يرجع إلى حال المتكلم نفسه من قرائن تدل على صرف الكلام عن ظاهره إلى المجاز.

---

(١) سورة آل عمران ٢٦.

قرينة المجاز العقلى :

اشـــترط البلاغيون وجود قرينة مانعة عن إرادة المعنى الحقيقى فى صور المجاز العقلى وهذه القرينة إما لفظية أو غير لفظية أى معنوية.

فاللفظية : أن يذكر فى الكلام لفظ يصرفه عن إرادة الإسناد الحقيقى، ومثال ذلك قول أبى النجم :

قـــد أصـــبحت أم الخـــيار تدعـــى ... علـــىّ ذنـــبا كلــــه لـــم أصـــنع

مـــن أن رأت رأســـى كرأس الأصلع ... مـــيز عـــنه قـــنزعاً عن قنزع[1]

جـــذب اللـــيالى أبطـــئى أو أســـرعى

أفـــناه قـــيل الله للشـــمس أطلعـــى ... حـــتى إذا واراك أفـــق فـــارجعى

فالشـــاعر أســـند الفعل "ميَّزه" بمعنى فرَّق وفصَّل إلى جذب الليالى إســـناداً مجازيـــاً من إسناد الفعل إلى السبب أو الزمن ، وذلك لأن توالى اللـــيالى لا يفرق شعر الرأس ، ولكن الليالى زمن لذلك ، أو سبب فيه لما فيها من الهموم الثقيلة التى تعترى الشاعر.

وقرينة المجاز هنا لفظية : وهى قول الشاعر "قيل الله" فقد أسند إفناء شـــعر الرأس إلى الله إسنادا حقيقياً ، فدلّ هذا على أن القائل مؤمن متجوز فى كلامه الأول ، وأن إسناد "ميَّز" إلى جذب الليالى مجاز عقلى.

---

(١) القـــنزع : الشـــعر المـــتجمع فى نواحى الرأس "عن" الثانية بمعنى بعد أن أفناه أى أفنى الشعر – جذب الليالى : مضيها ، قيل الله : أى قول الله – واراك : غيبك.

وأما القرينة غير اللفظية أي المعنوية :

فهى ألا يذكر فى الكلام لفظ يصرفه عن إرادة الإسناد الحقيقى ، بل يكـون فى الكلام أمر آخر خارج عن نطاق اللفظ ، وهو استحالة صدور المسـند مـن المسـند إليه أو قيامه به عقلا أو عادة ، فإذا قلت : محبتى للمحاضرة هى التى أتت بى إليها ، بإسناد الإتيان إلى ضمير المحبة على سـبيل المجاز العقلى لعلاقة السببية ، والقرينة هنا معنوية إذ يستحيل عقلا إتصـاف المحـبة بالحدث وهو الإتيان ، وتقول : فتح عمرو بن العاص مصـر ، فتسـند فتح مصر إلى "عمرو" على سبيل المجاز العقلى لعلاقة السـببية والقريـنة معنوية إذ يستحيل عادة أن يفتح عمرو بمفرده مصر ، وإن كان هذا ممكنا عقلاً.

وعلى ذلك جاء قوله تعالى : ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾(١) فقد أسـند التذبـيح والاستحياء لفرعون وهو فى العادة لا يقع ذلك منه بل هو سـبب فـيه ، والقرينة هى استحالة صدور ذلك الفعل من فرعون عادة لا عقـلا، وقـس على هذا نحو : هزم الأمير الجند ، وكسا الخليفة الكعبة ، وبنى الوزير القصر.

علاقات المجاز العقلى :

للفعـل ملابسـات شـتى؛ لأنه يلابس الفاعل من جهة وقوعه منه، والمفعـول من جهة وقوعه عليه ، ويلابس المصدر لكونه جزء مفهومه،

(١) سورة القصص من الآية ٤.

ويلابس الزمان والمكان ؛ لأن كل حدث لا بد له من زمان ومكان يقع فيهما ، ويلابس السبب ؛ نظراً لوقوعه به.

فإذا ما وجدت علاقة بين المسند إليه الحقيقى ، والمسند إليه المجازى كانت هذه العلاقة مسوغة لأسلوب المجاز العقلى ، وسنذكرها على النحو التالى:

١-**علاقة السببية** ، وفيها يكون الفعل مسنداً إلى سببه ، كقولنا :

أنشأ وزير التعليم عدة مدارس ، نسب الفعل إلى الوزير لكونه سببا فى الإنشاء ، وكقولك : انتصر القائد على جيوش العدو ، الذى حقق الانتصار على جيش العدو فى الحقيقة هم الجنود المحاربون فى الميدان ، لكن نسب الانتصار إلى القائد لكونه سببا فيه من جهة إشرافه الدقيق على وضع الخطة ومباشرة تنفيذها ، ولذلك صح إسناد الفعل إليه مبالغة ، لأنه لولاه لما تحقق النصر ، ومن ذلك قول الطالب غير المجد : أفزعنى الامتحان وحقيقة هذا التعبير : فزعت بسبب الامتحان ، ومنه قول الشاعر:

إنا لمن معشر أفنى أوائلهم قيل الكماة ألا أين المحامونا

فقد نسب الإفناء إلى غير فاعله الحقيقى فجعله راجعا إلى قول الشجعان هل من مبارز؟ وليس ذلك القول بفاعل له فى الحقيقة وإنما هو سبب فقط ، وحقيقة هذا التعبير : أفنى الله أوائلهم بسبب قيل الكماة ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] أسند النفع إلى الذكرى

(١) سورة الذاريات الآية ٥٥.

وهى ليست بفاعل فى الحقيقة وإنما هى سبب فى النفع ، وحقيقة التعبير : فإن الذكرى ينفع الله بسببها المؤمنين.

٢-**علاقــة المفعولــية** : وفيها يسند الفعل المبنى للفاعل إلى المفعول به ، كقولك : رضيت عيشة فلان ، فقد أسندت فعلا مبنيا للمعلوم – حقه أن يســند إلى فاعله الحقيقى – إلى المفعول فيقال : رضى فلان عيشته ، لأن العيشــة مرضــية لا راضــية ، ومنه قوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾(١) وحقيقته : عيشة راض صاحبها عنها ، ومــنه قولهــم : ربحــت تجارته ، والأصل : ربح فى تجارته ، ومنه قولهــم: مــنزل عامــر بنعم الله ، المسند اسم الفاعل إلى المفعول فى المعنى، ومنه سرنى حديث المحب ، استعمل اسم الفاعل (المحب) بدلا من المحبوب لأن المراد : سررت بمحادثة المحبوب.

علاقة الفاعلية : وفيها يسند ما يبنى للمفعول إلى الفاعل كقوله تعالى ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾(٢) الوعــد آت لا مأتى ، وحقيقته : كان وعده مأتيا صــاحبه ، أى يأتــيه الوعد ، وقوله تعالى ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾(٣) أى ساترا ، جعل الحجاب مستورا مع أنه هو الساتر.

---

(١) سورة القارعة الآيتان ٦ ، ٧.
(٢) سورة مريم ٦١.
(٣) سورة الإسراء ٤٥.

٤-**علاقة المصدرية** : وفيها يسند الفعل إلى مصدره كقول أبى فراس :

سـيذكرنى قومـى إذا جـد جدهـم وفـى الليلة الظلماء يفتقد البدر

أسـند الفعـل (جد) إلى المصدر (جدهم) بمعنى اجتهادهم وهو ليس فاعله فى الحقيقة بل الفاعل هو الجاد نفسه ، لأن الأصل : جد الجاد جدا ، أى اجـتهد ، فحذف الفاعل الأصلى وهو الجاد وأسند الفعل إلى الجد الذى هو المصدر ، ومنه قولهم : تكاد عطاياه يجن جنونها ، فقد أسند الفعل يجن إلـى مصدره وهو جنون وهو ليس بفاعله فى الحقيقة بل الفاعل الجان ، لأن الأصـل : جن الجان جنونا ، حذف الفاعل (الجان) وأسند الفعل إلى الجنون.

٥-**علاقـة الزمانية وفيها يسند الفعل المبنى للفاعل إلى زمانه نحو** : من سـره زمـن ساءته أزمان ، أسند السرور والإساءة إلى الزمن وهو لم يفعلهمـا حقـيقة بل هما واقعان فيه ، والفاعل الحقيقى هو الله ، ومنه قولك: هذا يوم يغيظ الحاسدين ، إسناد غيظ الحاسدين إلى ضمير اليوم غـير حقـيقى ، لأن اليوم ليس فاعلا فى الحقيقة بل حدث فيه الغيظ ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾(١) أسـند الفعل يجعل إلى ضمير اليوم وهو ليس فاعله بل هو زمن وقوع الشـيب ، وحقيقـته يجعل الله الولدان شيبا فى ذلك اليوم ، ومنه نهاره

---

(١) سورة المزمل ١٧.

صـــائم وليله قائم ، والأصل : صام فلان في نهاره وقام في ليله ، لكنه أسند اسم الفاعل إلى زمانه ، ومنه قول الشاعر :

كلمـــا أنبـــت الـــزمان قـــناة ركـــب المـــرء فـــى القـــناة سنانا

أســند أنبــت إلى زمانه وهو ليس بفاعل في الحقيقة وإنما هو زمن للوقوع ، ومنه قول طرفه :

ســتبدى لــك الأيــام ما كنت جاهلا ويأتــيك بالأخــبار مــن لم تزود

حقيقــته : سيبدى الله لك في الأيام ، ومنه يوم مشرق ، وحقيقته يوم مشرقة شمسه فيه ، ونهار عاصف ، أي عاصفة رياحه فيه.

٦-**علاقــة المكانــية** : وفــيها يسند الفعل إلى مكان وقوعه كقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾(١) أسند الفعل (تجرى) إلى ضمير الأنهار وهي مكان الماء فهي ليست بجارية وإنما الجارى ماؤها وقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾(٢) أسند ما حقه أن يسند للفاعل إلى المكــان ، والحقــيقة : حرما آمنا أهله فيه ، وقوله تعالى ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾(٣) حقــيقة الإسناد أخرج الله من الأرض أثقالها ، ومنه ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾(٤) أسند اشتعل على المكان لأن الذى يشيب وهو الشعر ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) سورة الأنعام ٦.
(٢) سورة القصص ٥٧.
(٣) سورة الزلزلة ٢.
(٤) سورة مريم ٤.

وكـل امـرئ يولـى الجميل محبب ... وكـل مكـان ينبـت العـز طيب

حقـيقة الإسـناد فى البيت : وكل مكان ينبت الله فيه العز طيب لكن أسـند الفعـل إلى مكانه ، وقد اجتمعت كل من الزمانية والمكانية فى قول الشاعر :

يغـنى كلمـا صـدحت أيكـة ... وقـد نـبه الصـبح أطـيارها

الحقـيقة : كلمـا صدحت الطيور فى أيكة ، وقد نبه الله فى الصبح أطـيارها، ومن الإسناد للمكان قولهم طريق سائر ، ونهر جار ، أى سائر أهله فيه ، ونهر جار ماؤه فيه ، وقولك : ذهبت إلى حديقة غناء ، والحديثة لا تغـن وإنما عصافيرها ، وقولهم : مشرب عذب ، نسبت العذوبة للمكان ولكن العذب هو الماء فى الحقيقة.

تنبيه :

ينبغى أن يعلم أن المجاز العقلى ليس خاصا بالإثبات وإنما يجئ فى النفى أيضاً كقول الشاعر :

لقـد لمتـنا يا أم غيلان فى السرى ... ونمـت ومـا لـيل المطـى بنائم

التقدير وما ليل المطى بنائم أهله فيه.

كمـا يقـع المجـاز العقلى أيضاً فى الأساليب الإنشائية كوقوعه فى الخبر، تقول فى التمنى مثلا : ليت عيشة فلان راضية ، وفى الاستفهام : هـل رضـيت عيشة فلان؟ وفى الأمر ، لترض عيشته ، وهكذا ، وحقيقة

الإسناد فـي الأمثلة : ليت فلانا راض عيشته ، وهل رضى فلان عيشته وليرض فلان عيشته.

القيمة البلاغية للمجاز العقلى :

قـال عنه الشيخ عبد القاهر الجرجانى "هو كنز من كنوز البلاغة ، ومـادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ فى الإبداع والإحسان ، والاتساع فى طـرق البيان .. وأنه يدق ويلطف حتى يمتنع مثله إلا على الشاعر المفلق والكاتب البليغ".(١)

كمـا أنه يحتوى على نوع من الإيجاز ، ويعرض المعنى فى أقل ما يمكن من اللفظ ، فمثلا إذا قلنا : فتح عمرو بن العاص مصر ، لا شك أننا نجـد فارقا فى قوة العبارة وإيجازها عن قولنا : فتح جيش المسلمين مصر بقيادة عمرو بن العاص(٢) كذلك يعمل على تلوين الأفكار وتوليد الصور، وبعـث الإيحـاء بما هو ملائم لطبيعة المعانى وهو دليل الفصاحة ورأس الـبلاغة ، وأعجـب تمـا فى العبارة المجازية أنها تنقل السامع عن خلقه الطبـيعى فـى بعض الأحوال ، حتى إنها يسمح بها لبخيل ، ويشجع بها الجـبان ، ويحكـم بها الطائش المتسرع ويجد المخاطب بها عند سماعها نشـوة كنشوة الخمر حتى إذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق وندم على ما كان منه من بذل مال أو ترك عقوبة.(٣)

(١) ينظر دلائل الإعجاز ٢١٤.
(٢) المعانى فى ضوء أساليب القرآن ١١٧.
(٣) ينظر المثل السائر لابن الأثير ٨٩/١ ، والعمدة لابن رشيق ٢٦٥/١.

وفـيه المهارة والتركيز في اختيار العلاقة أيا كان نوعها فإذا قلت : يجـري الـنهر فإنك تصور جريان الماء داخل النهر وفي حيزه وليس في مكان آخر ، وإذا أنعمت النظر ألفيت فيه لونا من المبالغة فقد جعلت النهر بضفافه ومائه وكل ما يحتوي يجري وليس الماء وحده ، أي أنه جعل الماء بجملته نهرا حتى كأنه قد تجسد فيه.(١)

وقـد يكون من مقاصد المجاز العقلي دفع التهمة عن الفاعل الحقيقي فيسـند الفعـل على سببه كما قالوا فلان قتله جهله ، وكأنما يريدون تبرئة قاتلـه من جريمة قتله ، وهذا يذكرنا بقصة سيدنا عمار بن ياسر ﷺ فقد كـان فـي جند علي ﷺ يوم صفين فلما قتل اضطرب أهل الشام لعلمهم بقـول النـبي ﷺ عمار تقتله الفئة الباغية فقال لهم معاوية : إنما قتله من أخرجه ، فقد وجد معاوية في المجاز دفعا للتهمة عن جماعته.(٢)

أقسام المجاز العقلي باعتبار طرفيه :

ينقسم المجاز العقلي باعتبار طرفيه أربعة أقسام :

١-ما كان الطرفان – المسند والمسند إليه – حقيقتين لغويتين ، مثل : أنبت الربـيع البقل ، فإنبات البقل الذي هو المسند حقيقي لاستعماله في معناه اللغوي الذي وضع له ، والربيع وهو – المسند إليه – حقيقي لاستعماله فـي معـناه اللغوي الذي وضع له فالطرفان حقيقيان ، ومثل ذلك قول الشاعر :

(١) فن البلاغة للدكتور عبد القادر حسين ٩٩ – ١٠٠.
(٢) ينظر البيان العربي بدوي طبانه ١٣٦.

وشـــيب أيـــام الفـــراق مفـــارقي وأنشزن نفسى فوق حيث تكون[١]

فإسناد الشيب إلى أيام الفراق مجاز عقلى علاقته الزمانية ، والمسند "شيب" والمسند إليه "أيا الفراق" كلاهما مستعمل فى معناه الحقيقى ، لكن التجوز حصـــل فـــى الإسناد فقط ، ومثل ذلك : سرنى الخبر ، وسرتنى رؤيتك.

٢- ما كان الطرفان – المسند والمسند إليه – مجازين ، مثل : أحيا الأرض شـــباب الـــزمان ، فالطرفان أحيا "المسند" وشباب الزمان "المسند إليه" مستعملان فى غير ما وضعا له ، لأن الإحياء إيجاد الحياة فى الحيوان قد استعمل فـــى غـــير معناه ، وهو إيجاد نضارة الأرض وإحداث خضـــرتها ، وذلك على سبيل الاستعارة التبعية بأن شبه إيجاد الخضرة وأنـــواع الأزهار بإعطاء الحياة وإيجادها ، ووجه الشبه كون كل منهما إحداث ما هو منشأ المنافع والمحاسن إذ لا منفعة ولا حسن فى الموت[٢] وكذلك "شباب الزمان" والذى معناه الأصلى أنه زمن ازدياد قوة الحيوان اســـتعمل فـــى غير معناه وهو الربيع على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، إذا فالطرفان مجازان لغويان ، والتجوز فى الإسناد والمسند والمسند إليه.

---

(١) المفارق جمع مفرق وهو موضع افتراق الشعر ، وأنشزن : رفعن ، والشاعر بين أن أيام الفـــراق أثـــرت فـــيه فشيبت مفارق شعره ، ورفعت روحه عن مكانها فى الجسم وبلغت الحلقوم.

(٢) ينظر مواهب الفتاح ١/٢٤٩.

٣-الطــرف الأول – المســـند – مجـــاز – والطرف الثانى – المسند إليه حقيقة، ومثال ذلك قول كثير عزة :

ولمـــا قضــينا مـــن منى كل حاجة ومســـح بالأركـــان من هو ماسح

أخذنـــا بأطـــراف الأحاديـــث بينـــنا وســـالت بأعـــناق المطى الأباطح

الشاعر هنا يصور رحلة عودته من الحجيج إلى أوطانهم بعد أن أدوا فريضة الحج يتجاذبون أطراف الحديث وتسيل بهم الإبل فى الأباطح "سيرا حثيـــثا فى غاية السرعة وكانت سرعة فى لين وسلاسة كأنها كانت سيولا وقعـــت فى الأباطح فجرت بها[1] فالشاعر أسند السيلان إلى الأباطح مجاز عقلـــى علاقته المكانية ، ولو نظرنا إلى الطرف المسند (السيلان) لوجدناه مســـتعملا فى غير معناه الذى وضع له ، وهو سيل الماء ، ولكنه مستعمل فـــى معنى مجازى وهو سرعة الإبل ، وذلك على سبيل الاستعارة التبعية فاســـتعار السيلان للسير السريع واشتق من السيلان سال بمعنى سر ، أما الطرف الثانى المسند إليه (الأباطح) فهو حقيقى مستعمل فيما وضع له.

٤-الطـــرف الأول – المســـند – حقيقة والمسند إليه مجاز ، مثل : أنبت شـــباب الزمان الورود ، فالطرف الأول أنبت "المسند" حقيقة والطرف الـــثانى "شـــباب الزمان" المسند إليه مجاز ، لأنه مراد منه الربيع على ســـبيل الاســـتعارة الأصلية ، وقد أسند الإنبات إلى شباب الزمان على سبيل المجاز العقلى لعلاقة السببية، والمسند حقيقة والمسند إليه مجاز.

(١) دلائل الإعجاز ١١٧.

المجاز العقلي بين علمي المعاني والبيان :

أنكر السكاكي المجاز العقلي ، وأدخله في الاستعارة بالكناية ، وبذلك يخرجه من علم المعاني ، ويدخله في علم البيان ، ولتوضيح هذا نورد هذا المثال : أنبت الربيع البقل ، فالسكاكي يجعل هذا المثال منه قبيل الاستعارة بالكناية ويستبعد أن يكون من المجاز العقلي "وذلك بتشبيه الفاعل المجازي وهو "الربيع" بالفاعل الحقيقي – وهو الله–عزل وجل – في تعلق الفعل بهما ، ثم يحذف المشبه به ويرمز إليه بشئ من لوازمه ، وهو الإنبات على سبيل الاستعارة بالكناية".(١)

ولعل السكاكي لم يكن مقتنعاً كل الاقتناع بفكرة المجاز العقلي حين أقبل نحوه يدرسه ويفلسف له ، وإنما فعل ما فعل مجاراة لمن سبقه ممن كتب حوله كالإمام عبد القاهر والزمخشري والفخر الرازي الذين تأثر بهم في كثير مما كتب.(٢)

ورد المتأخرون مذهب السكاكي في إنكار المجاز العقلي وعلى رأس هؤلاء الخطيب القزويني الذي تعقبه وناقشه ورد عليه ، فمن هذه الردود قوله "ثم ما ذكره أي – السكاكي – منقوض بنحو قولهم : فلان نهاره صائم فإن الإسناد فيه مجاز ، ولا يجوز أن يكون النهار استعارة بالكناية عن فلان ، لأن ذكر طرفي التشبيه يمنع من حمل الكلام على الاستعارة".(٣)

---

(١) ينظر المفتاح للسكاكي ٢١٢.

(٢) المجاز في اللغة والقرآن الكريم د. عبد العظيم المطعني ٣٤٤/١.

(٣) الإيضاح ١٠٨.

وبذلك يدخل الخطيب القزويني المجاز العقلي في علم المعاني "على اعتبار أنه تتمة للأحوال التي تعرض للإسناد الخبري"[١] من التوكيد وتركه ، والحقيقة العقلية والمجاز العقلي ، كما أن الحقيقة العقلية والمجاز العقلي حــالان من أحوال اللفظ وأنه يؤتى بهما لأحوال تقتضيهما ، لأن ملابسات الفعــل تقتضي الإتيان بالمجاز العقلي عند قصد المبالغة وعدمهما يقتضي الإتيان بالحقيقة العقلية، وبهذا يدخلان في تعريف علم المعاني.[٢]

وإذا كان بعض صور المجاز العقلي يمكن أن تحمل على الاستعارة بالكــناية فــإن كثيراً من الصور الأخرى لا يجوز حملها على الاستعارة بالكناية ، ولذا فالأولى حمل هذه الصور على الأغلب والأعم أي – المجاز العقلي – خاصة وأن كثيرا من البلاغيين والباحثين يدرجون المجاز العقلي في علم المعاني.

المجاز العقلي يقع في الإنشاء كما يقع في الخبر :

مثال ذلك ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾[٣] وقوــله تعــالى ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً﴾[٤] ففي الآيتيــن السابقتين أسند الأمر في الأفعال (ابن – أوقد – اجعل) إلى السبب الآمــر ، لأن باني الصرح والموقد على الطين هم العمال بأمر من هامان فهو السبب المباشر، فالعلاقة في تلك الأساليب الإنشائية السببية.

---

(١) المنهاج الواضح ٥٢.

(٢) ينظر : بغية الإيضاح ٧٢/١ ، والمعاني في ضوء أساليب القرآن ١١٧.

(٣) سورة غافر ٣٦.

(٤) سورة القصص من الآية ٣٥.

أحـــوال المســـند إليه

المقصود بأحوال المسند إليه :

ما يعرض له فى الاستعمال من الذكر والحذف، والتعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، وغيرها من الأمور التى بها يطابق مقتضى الحال ولكل حالة من أحواله المذكورة مقام يستدعيها.

حذف المسند إليه :

مـــن المعـــروف أن الأصل فى المسند إليه أن يذكر فى الكلام لأنه الأصل لكونه محكوماً عليه بالمسند، ولذلك كان حذفه خلافاً للأصل ، لكنه لما اقتضى المقام حذفه ساغ عدم ذكره فى الكلام، ولا يكون الحذف مقبولاً إلا إذا كان فى الكلام قرينة تدل على المحذوف ، فإذا لم توجد تلك القرينة الدالـــة على المحذوف أو وجدت قرينة ضعيفة لا يعول عليها وكانت غير مصحوبة بغرض آخر يدعو إلى الحذف فلابد من الذكر جرياً على الأصل وإلا صار الكلام إلى التعمية والإلغاز.

وللدلالـــة على حسن الحذف : أنه متى ظهر المحذوف زال ما كان فى الكلام من الرونق والحسن وصار إلى شئ بارد غير مقبول.

واعلم أن المناسبات قد تدعو أحياناً إلى ترجيح الذكر مع وجود قرينة تســـوغ الحـــذف تبعاً للأغراض المختلفة التى ترجع إلى أساليب البلاغيين ولذلك نجدهم يذكرون أحياناً ما يجوز حذفه، كما يحذفون أحياناً ما لا يوجد مـــانع مـــن ذكـــره، ولذا كان الحذف فى اللغة "أمراً دقيق المسلك، لطيف

المأخذ شبيهاً بالسحر فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن"[1] هذا ويحذف المسند إليه لدواع أهمها ما يلي :

١- مجرد الاختصار والاحتراز عن العبث بناء على الظاهر لدلالة القرينة عليه، واعتبر الذكر في ظاهر الأمر عند دلالة القرينة على المحذوف لأنه في واقع الأمر لا عبث من ذكره لأنه أعظم ركن في الإسناد، ومن أمثلة الحذف للاحتراز على العبث قول الشاعر :

سأشكر عمرا إن تراخت منيتي * أيادي لم تمنن وان هي جلت

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

الأصل هو فتى ، لكن لما كان ذكره أولاً دالاً عليه اعتبر ذكره بعد ذلك مرة ثانية عبثاً في ظاهر الأمر فحذف المبتدأ لذلك ومنه قول الشاعر :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

نجوم سماء كلما أنقض كوكب بدا كوكب تأوى إليه كواكبه

الأصل أن يقال في البيت الثاني هم نجوم لكن لما كان المسند إليه مذكوراً في البيت الأول عد ذلك قرينة مسوغة لحذفه احترازاً من العبث.

ومن قول الشاعر :

اعتاد قلبك من ليلى عوائده وهاج أهواءك المكنونة الطلل

---

(١) دلائل الإعجاز ١٤٦.

ربـــع قـــواء أذاع المعصـــرات بـــه   وكـــل حـــيران ســـار ماؤه خضل

ومعـــنى أذاع المعصـــرات بـــه أنزلت ماءها بكثرة حتى ذهبت به وطمسته والحيران الساري وهو يجري ليلاً ، قواء : لا أنيس به.

فـــتقدير المحذوف : ذاك ربع قواء، أو هو ربع قواء، فحذف المسند غلـــيه احـــتراز عـــن العبث ، ومما ينبغي التنبيه عليه أن الأمثلة الثلاثة المذكـــورة هـــنا يعدها بعض البلاغيين من قبيل الحذف اتباعاً للاستعمال الـــوارد عن العرب، ولا تناقض بين النكتتين لأن المثال الواحد يصلح أن يمثل به لأكثر من نكتة.

٢- ضـــيق المقام عن إطالة الكلام بسبب ما يعرض للمتكلم من مرض أو ضـــجر وغرابة أو خوف من ضياع فرصة، فمثال الأول (ضيق المقام للمرض) قول الشاعر :

قـــال لـــي كـــيف أنـــت؟ قلت عليل * ســـهر دائـــم وحـــزن طويـــل

أي أنا عليل، فحذف المسند إليه لأنه مريض يضيق صدره عن إطالة الكلام، ومنه أيضاً قول الشاعر:

تســـاءل خـــدن والأسى يتبع الأسى * خلـــيلي كـــيف الحـــال؟ قلت سقيم

أي أنا سقيم فحذف المسند إليه لضيق المقام بسبب المرض.

ومثال الثاني (ضيق المقام بسبب الضجر والغرابة) قول الله سبحانه حكاية عن السيدة سارة زوج إبراهيم عليه السلام ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ

عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾(١) أى أنـا عجـوز، لكنه لما كان فى الأمر غرابة وأصابها الضجر من إخبارها بأنها ستلد بعد وصولها إلى مرحلة العقم ضاق صدرها عن إطالة الكلام بسبب ما انتابها من ألم التفكير فى أمرها فتركت ذكر المسند إليه.

ومثال الثالث (خوف فوات الفرصة) أن تكون مع زميل لك فى ميدان القتال ترقبان تحرك دبابات العدو لتدميرها فظهرت أمامك إحدى الدبابات فأخبرت زميلك قائلاً: دبابة ، أى هذه دبابة، فضيق المقام عن الإطالة بسبب الخوف من فوات الفرصة لتدمير الدبابة سوغ حذف المسند إليه.

٣- اختبار تنبه السامع أيتنبه إلى المسند إليه عند قيام القرينة الدالة عليه أم لا يتنبه إلا بالتصريح المسند إليه؟ كقولك لزميلك: نوره مستفاد من نور الشمس، تعنى القمر، لكنك حذفته لتختبر زميلك هل يتنبه لمعرفة المسند إليه بدلالة ذكر الشمس أم لا؟ ومنه : أن تنتظر زميلاً لك فيحضر فى ميعاده فتقول لمن يجلس معك : دقيق فى ميعاده وتحذف المسند إلية اختباراً لذكاء السامع لتعرف هل سيتنبه ويدرك أنك تقصد فلاناً أم لا؟

٤- إيهام أن فى تركه تطهيراً له عن لسانك أو تطهيراً للسانك عنه ، فمثال الأول قولك عن النبى صلى الله عليه وسلم: شفيعنا يوم القيامة والتقدير: رسول الله شفيعنا، لكنك تركت ذكر المسند إلية تطهيراً له من

---

(١) سورة الذاريات ٢٩.

الذكر على اللسان لكونه أجل من أن نتلفظ به على ألسنتنا التى دنستها النميمة.

ومـــثال الـــثانى قولك : مطرود من رحمة الله، تقصد إبليس ، لكنك حذفت المسند إليه احتقاراً له وتطهيراً للسانك عن الدنس بذكره.

٥- تـــأتى الإنكـــار إن مســـت إليه الحاجة، وذلك كقولك عن إنسان لئيم خســـيس، فقد حذفت المسند إليه هنا وهو اسم هذا الشخص الذى تعنيه ليتأتى لك أن تنكر أنك قصدته بهذا وذلك خوفاً منه أن يعاقبك على ما ذكرته عنه من وصفه باللؤم والخسة، وكذلك قولك عن وزير مرتش: لـــص ماكـــر، أو مرتش، فحذفت اسمه الذى هو مسند إليه ليكون لك متسعاً من الإنكار عند المؤاخذة على قولك.

٦- كون الخبر لا يصلح إلا للمسند إليه حقيقة أو ادعاء، فمثال الأول قولك عـــن الله ســـبحانه: عالم الغيب والشهادة، خالق للكون، يعز من يشاء ويذل من يشاء، فترك ذكر المسند إليه فى الأمثلة لكونه متعيناً وهو الله ســـبحانه، والخـــبر فى كل الأمثلة لا يصلح أن يسند إلى غيره تحقيقاً، ومـــن ذلك قوله تعالى ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾[1] أى هم صم فحذف المسند إلـــيه لتعيـــنه لأن الكـــلام عن المنافقين والخبر لا يصلح إلا له حقيقة، وكقولـــك عـــن خالد بن الوليد : سيف الله، بحذف اسمه لكون الخبر لا يصلح إلا له.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨.

ومثال تعين الخبر للمسند إليه ادعاء قولك عن رجل مشهور بالعطاء والإنفـاق: وهاب الألوف، فقد حذفت المسند إليه وهو اسم هذا الرجل لا دعـائك أن الخبر لا يصلح إلا له لاشتهاره بين الناس بالعطاء، ومن هذا القبيل قول الشاعر عن محبوبته :

غـراء مبسـام كـأن حديـثها * در تحـدر نظمـه منـثور

التقدير : هي غراء، لكن حذف المسند إليه لادعاء الشاعر أن المسند لا يصلح إلا لها، وكقولك عن زميل لك في الدراسة اشتهر بخدمة الجميع، وقته لإخوانه.

الـتقدير : فلان وقته لإخوانه، لكنك حذفت اسمه لاشتهاره بتلك الأوصاف مدعياً أن الخبر لا يصلح لغيره.

٧- يحذف المسند إليه أيضاً لإخفاء أمره عن غير المخاطب، نحو أقبل أو سـافر، تـريد محمداً لكنك لم تصرح باسمه ليكون خافياً عن غير من تكلمه.

٨- ومـن دواعي حذف المسند إليه لأغراض تتعلق باللفظ حذفه محافظة على الوزن كقول الشاعر :

علـى أنني راض بأن أحمل الهوى * وأخلـص مـنه لا علـى ولا لـيا

أي لا على شئ ولا لي شئ، فحذف المسند إليه وهو شئ لأن ذكره يخـل بوزن البيت، ويحذف أيضاً محافظة على السجع في الكلام كقولهم : "مـن كـرم أصله وصل حبله، أي وصل الناس حبله، فحذف المسند إليه

(الناس) وهو المسند إليه الأصلي، وهذا لا يمنع أن نائب الفاعل مسند إليه أيضاً ، وسر الحذف المحافة علي السجع ، كما يحذف محافظة على القافية كقول لبيد :

ومـا الـناس والأهلـون إلا ودائع * ولابـد يومـاً أن تـرد الودائـع

حـذف المسند إليه (الناس) – لأن الأصل أن يرد الناس– للمحافظة علـى القافـية لأن عـدم الحذف يجعل القافية مختلفة فتصير مرفوعة فى الشطر الأول، منصوبة فى الشطر الثانى، إلي جانب فساد الوزن.

ويعـالج عبد القاهر قضية الحذف بطريقة أدبية لطيفة حيث يعرض فيها نماذج لألوان الحذف المختلفة، وتحليلها وبيان مزية الحذف لا بأس من الاطلاع على جانب من تلك النماذج للتعرف على طريقته وطريقة الآخرين فى تناول هذا الموضوع بعد أن بين فضيلة الحذف جاء بأبيات حذف فيها المبتدأ.

... ثـم قـال : ومـن المواضع التى يطرد فيها حذف المبتدأ القطع والاستئناف ، يبدأ بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره ثم يدعون الكلام الأول ويسـتأنفون كلاماً آخر، فإذا فعلوا ذلك أتوا فى أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ مثل قول الشاعر :

هـو حلـوا مـن الشـرف المعلى * ومـن حسـب العشيرة حيث شاؤا

بـناة مكـارم وأسـاة كلـم * دمـاؤهم مـن الكلـب الشـفاء

الأســـاة : الأطباء ، والكلم: الجرح، وكانوا يزعمون أن الذى عضه كلب شفاؤه فى أن يشرب من دم ملك.

والمحذوف المبتدأ فى أول البيت الثانى تقديره : هم بناة مكارم وإنما حذف لاستئناف ذكر تلك الصفات ولأنه دل عليه ذكرهم فى البيت الأول، وبعد ذكر أبيات كثيرة فى هذا الصدد يقول : فتأمل الآن هذه الأبيات.

وانظـــر إلى موقعها فى نفسك وإلى ما تجده من اللطف والظرف إذا أنت مررت بموضع الحذف منها .. ثم تكلف أن ترد ما حذف الشاعر وأن تخـــرجه إلـــى لفظك وتوقعه فى سمعك فإنك تعلم أن الذى قلت كما قلت، (يقصد أن الذكر هنا يذهب بهاء الكلام وحلاوته) وأن رب حذف هو قلادة الجـــيد، وقاعدة التجويد، ثم يقول : وإذ عرفت هذه الجملة من حال الحذف فـــى المبتدأ فاعلم أن ذلك سبيله فى كل شئ ، فما من اسم أو فعل تجده قد حذف ثم أصيب به موضعه وحذف فى الحال التى ينبغى أن يحذف فيها إلا وتجد حذفه هناك أحسنه من ذكره وتجد إضماره فى النفس أولى وآنس من النطق به.[١]

يقول عبد القاهر عن حذف المفعول إذا حذف المفعول خصوصا فإن الحاجـــة إليه أمس وألطف كأنها فيه أكثر ، ومما يظهر بسببه من الحسن والرونق أعجب وأظهر.

(١) دلائل الإعجاز ١٤٦ – ١٥٣.

ثانياً : ذكر المسند إليه :

المسند إليه ركن أصيل فى تركيب الجملة فهو واجب الذكر ما لم تقم عليه قرينة فحينئذ يجوز حذفه ويجوز ذكره ، وكما قلنا أن الحذف يكون لأغراض ومقاصد فى الكلام ، فإن الذكر أيضاً يأتى لأغراض ودواع يتطلبها المقام ، ولا يقال حينئذ أن الحذف بليغ والذكر غير بليغ أو العكس؛ لأن البلاغة مراعاة مقتضى الحال ، فالذكر بليغ متى استدعاه المقام ووافق الحال ، والحذف بليغ كذلك متى استدعاه المقام واقتضاه الحال.

وعلى ذلك فالأغراض التى يذكر من أجلها المسند إليه كثيرة نذكر منها ما يلى:

١- **الإيضاح والتقرير** : مثال ذلك قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١) ، كـرر إسم الإشارة (أولئك) مرتين لزيادة إيضـاح وتقرير لتميزهم على غيرهم فكما ثبت لهم التميز بالهدى ثبت لهم التميز بالفلاح.

ومنه قوله تعالى ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.(٢)

---

(١) سورة البقرة الآية ٥.

(٢) سورة الحشر الآية ٢٣ – ٢٤.

فيمكن فى غير القرآن الكريم أن يستغنى عن المسند إليه (هو) ولكنه صرح بذكره فى الآية فى عدة مواضع لزيادة إيضاحه ، وليستقر فى النفس مرتبطا بخبره وليفيد بتعريفه وتعريف الخبر أنه وحده الإله الواحد ، فضلا عــن ذلــك تــرى فى الأسلوب هذا التناسق الموسيقى الذى يفقد إذا حذفنا المسند إليه.(١)

٢-**تعظــيم المسند إليه والاستلذاذ بذكره** : مثال ذلك قول البوصيرى فى مدح سيدنا محمد ص :

محمــــد ذكـــــره روح لأنفســــنا   محمــد شــكره فــرض على الأمم

فكرر المسند إليه (محمد) مرتين إظهارا لتعظيمه ﷺ والتبرك بذكر اسمه، ومن ذلك قول الخنساء ترثى أخاها صخرا :

وإن صــــخرا لكافيــــنا وســــيدنا   وإن صــــخرا إذا نشــــتو لــــنحار

وإن صــــخرا لــــتأتم الهــداة بــــه   كأنــــه علــــم فــــى رأســــه نــار

فالخنســـاء لشدة حزنها وحرقتها على فقدان أخيها تكرر اسمه ، حتى كأنــــه حـــى تــناديه ، وتشعرك بأنه لا أحد مثله ، وهو جدير بذلك الثناء والتقدير والتعظيم.

ومن هذا الباب أن يذكر الشاعر اسم صاحبته ثم يكرره ، وكان يمكنه الاســتغناء بضميره ، ولكنه يؤثر النص عليه لأن فى ذلك ما يثير أشواقه ويلذ قلبه انظر إلى قول قيس :

---

(١) المعانى فى ضوء أساليب القرآن الكريم ١٤٥.

ألا ليـت لبـنى لـم تكـن لى خلة ولـم تلقـني لبـنى ولم أدر ماهيا

ذكـر لبنى فى الشطر الثانى ، وكان يمكنه أن يكتفى بقوله ولم تلقنى ولـم أدر ما هيا ، ولكن الشاعر يحرص على ذكر الاسم لأنه يحبه ويحب أن ينطق به.[1]

٣-**تحقـير المسند إليه** : مثل قولك حضر القاتل السفاح أمام المحكمة فى جـواب مـن قال هل حضر فلان أمام المحكمة فى جواب من قال هل حضر فلان أمام المحكمة؟

٤-**إظهار التعجب منه** : وذلك إذا كان الحكم غريباً يندر وقوعه نحو قولك : نعم على يصرع الأسد فى جواب من قال : هل على يصرع الأسد؟

٥-**إطالـة الكلام وبسطه** : ومنه قوله تعالى حكاية عن سيدنا موسى – عليـه السلام ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾[2] وكـان يكفيه فى الجواب عن السـؤال أن يقول : عصاى لكنه ذكر المسند إليه (هى) لبسط الكلام فى هذا المقام فى حضرة الذات العلية ، وليزداد بذلك شرفاً وفضلاً ، ولحبه الإطالـة فـى هذا المقام أجاب عن أشياء أخرى لم يقتفها السؤال فقال ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾.

(١) خصائص التراكيب ١٣٧.
(٢) سورة طه آية ١٧ – ١٨.

٦-**ضعف التعويل على القرينة** : وذلك إذا ما وجدت قرينة تدل على المسند إليه لو حذف ، ولكن هذه القرينة ليست كاشفة مبينة ويخشى المتكلم إن هو عول عليها أن يلتبس المراد على السامع مثل قولك : أبو تمام نعم الشاعر ، فتذكر المسند إليه (أبو تمام) ، وذلك إذا ذكر فى كلام سابق ، وطال عهد السامع به، أو ذكر معه كلام فى شأن غيره من الشعراء.

٧-**التعريض بغباوة السامع ، وأنه لا يفهم إلا بالتصريح :**

مثل قولك لسامع القرآن : القرآن كلام الله.

ومنه قول الفرزدق فى زين العابدين بن على ﷺ :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ∴ والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم ∴ هذا التقى النقى الطاهر العلم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ∴ بجده أنبياء الله قد ختموا

وليس قولك من هذا بضائره ∴ العرب تعرف من أنكرت والعجم

فالفرزدق فى هذه الأبيات يعرض بهشام بن عبد الملك ، فذكر المسند إليه هذا وكرره تعريضا بغبائه حتى لا يعرف المتحدث عنه إلا بذكره ، وقد عرفته الدنيا كلها وفى هذا التعبير فيه من الإهانة ما فيه.

وقصة هذه الأبيات أنه لما حج هشام بن عبد الملك فى أيام أبيه طاف بالبيت وجهد أن يصل إلى الحجر الأسود ليستلمه فلم يقدر ، لازدحام

الحجـــيج فجلـــس على كرســـى نصـــب له ينظر الناس ومعه جماعة من أهـــل الشام ، وبينما هو كذلك ، إذ أقبل على زين العابدين بن الحسين بن علـــى بن أبي طالب فطاف بالبيت ، ولما انتهى إلى الحجر تنحى له الناس حـــتى استلم فسأل رجل من أهل الشام هشام بن عبد الملك : من هذا الذى هابـــه الناس هذه الهيبة؟ فقال هشام لا أعرفه ، مخافة أن يرغب فيه أهل الشـــام ، وكـــان الفـــرزدق حاضـــرا فقال أنا أعرفه ثم أنشد هذه الأبيات السابقة.(١)

(١) ينظر : فى علوم البلاغة ٧٥.

تعريف المسند إليه

قد يعمد الأديب إلى المسند إليه فيأتى به معرفاً بأحد أنواع المعارف، ليحقق بذلك أغراضاً بلاغية تؤكد المعنى وتقويه.

والبلاغيون على أن المقام إذا اقتضى التعريف، فأتى المتكلم بالمسند إليه معرفاً كانت الفائدة أتم.

توضـــيح ذلـــك : أن الغرض من الإخبار -كما مر- إفادة المخاطب الحكـــم أو لازمه ولازم الحكم هو : أيضاً حكم، لأن المتكلم كما يحكم فى الأول بوقوع النسبة بين الطرفين، يحكم هنا بأنه عالم بوقوع النسبة.

ولا شـــك أن احـــتمال تحقـــق الحكم كلما كان بعيداً من الذهن كان الإعلام به أكبر فائدة، وكلما كان أقرب كانت الفائدة أضعف.

وبعـــده بحسب تخصيص المسند إليه والمسند، فكلما ازداد تخصيصاً ازداد الحكم بعداً، وكلما ازدادا عموماً ازداد الحكم قرباً. وإن شئت فاعتبر حال الحكم فى قولنا: "شئ ما موجود" يعنى أن الفائدة فيه ضعيفة، لأن كل إنســـان يعلـــم بوجـــود شئ ما ، فيكون الحكم قريباً، ومن ثم تكون الفائدة ضعيفة بخلافها فى قولنا : "زيد حافظ للتوراة" فليس كل إنسان يعلم حصول حفـــظ معين من إنسان معين، فيكون الحكم بعيداً، ومن ثم تكون الفائدة أتم وأقوى. والمراد بتخصيص المسند إليه: كما له بالتعريف.

والنكرة وإن أمكن أن تخصص بالوصف بحيث لا يشاركه فيه غيره كقولـــك: "أعـــبد إلها خلق السماء والأرض" و"لقيت رجلاً سلم عليك اليوم

وحــده قبل كل أحد" لكنه لا يكون فى قوة تخصيص المعرفة، لأنه وضعى بخلاف النكرة[1].

وبالجملة ، فإن يؤتى بالمسند إليه معرفة؛ لتكون الفائدة أتم، وتلك هى مهمـــة البلاغى أو الأديب الذى من شأنه أن يكون على علم تام بالمواضع الـــتى يؤثر فيها طريق من طرق التعريف على غيره، أو يكون التعريف فيها أبلغ من التنكير.

والتعريف يكون على وجوه شتى، فقد يكون بالإضمار أو بالعلمية أو بالموصولية أو بالإشارة، أو بأل ، أو بالإضافة إلى أحد المعارف.

ولكـــل حالة من حالات التعريف هذه دواع ونكات بلاغية نستعرض بعضاً منها فيما يلى :

أ- تعريف المسند إليه بالضمير :

يكـــون المسند إليه ضميراً فى ثلاث مقامات - التكلم - والخطاب- والغيـــبة، فـــإذا ما تحدث المتكلم عن نفسه كان المقام مقام ضمير المتكلم، وذلك كقول النبى ﷺ يوم بدر :

أنـــــا النـــــبى لا كــــــذب أنـــــا ابـــــن عــــبد المطلـــب

(١) راجـــع المطـــول لســـعد الدين التفتازانى صـــ٧٠ ، وراجع أيضاً بغية الإيضاح جــ١ صــــ٧٠، وعـــروس الأفراح للسبكى صــ٢٨٧ جــ١ ضمن شروح التلخيص ، وينظر أيضاً : من بلاغة النظم العربى للدكتور/ عبد العزيز عبد المعطى عرفة جــ١ صــ١٤٦.

وإذا مـــا خاطــب المتكلم غيره كان المقام مقام الخطاب، ومثال ذلك قوــله تعــالى ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾(١)، وكقول أمامة الخثعمية تخاطب ابن الدمينة :

أنــت الــذى أخلفتــنى ما وعدتنى وأشــمت بــى مــن كان فيك يلوم

وتعريف المسند إليه بضمير الخطاب "أنت" كشف عن مرارة الشعور بــإخلاف الوعــد من الحبيب وشماتة العذال، ولذا فقد آثرت هذه المحبوبة المعذبـــة أن تخاطب محبوبها بضمير الخطاب "أنت" قصداً منها إلى إيقاظ قلبه لعله يعرف خفقة الحب ولوعة العشق، ومرارة إخلاف الوعد.

وإذا مـــا تحدث المتكلم عن غائب، فلابد أن يتقدم فى الكلام ما يدل عليه لفظاً أو معنى، أو توجد فى الكلام قرينة حالية تدل عليه، فمثال ما يــدل على الغائب لفظاً : قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾(٢) فقــد ورد لفظ الجلالة (الله) أولاً ثم جئ بضميره "هو" ثانــياً ، ومثال ما يدل على الغائب معنى: قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾(٣) فالضمير "هو" يعود إلى العدل الذى دل على معناه لفظ "اعدلوا" ومـــثال ما دلت عليه قرينة الحال قوله تعالى ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾(٤) فالحال هنا دلت على أن الحديث فى الآية عن الميت ، ومثل

---

(١) آية ٩-١٠ الضحى.
(٢) آية ٨٧ الأعراف.
(٣) من الآية ٨ المائدة.
(٤) من الآية ١١ النساء.

ذلـــك قولـــه تعالى ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾[1] أي الشمس ، فالضمير في تـــوارت يعود إلى الشمس ، وهي لم يسبق لها ذكر في الكلام ، ولكن دل عليها لفظ العشي قبل ذلك والتوارى بالحجاب ، وسياق الكلام.

هـــذا .. والأصل في ضمير الخطاب أن يكون لمعين كأن تقول : إن زرتـــني أكرمتك : تريد مخاطبا معينا ، وقد يراد بالخطاب العموم فيكون موجها إلى كل من يتأتى منه الخطاب ، وهذا يفيد الأسلوب مزية من حيث يشـــعر هـــذا العمـــوم بـــأن الأمر جدير بأن يكون ذائعاً ، وأنه لا يختص بمخاطب دون مخاطب، ومن شواهد عموم الخطاب قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[2] المراد بالخطاب هنا كل من يتأتى منه الرؤية ، وذلك للإشارة إلى أن هذه الصور المتناهية في الفظاعة تناهـــت أيضاً في الظهور ، فلا تختص بها رؤية راء بل كل من تتأتى منه الـــرؤية داخل في هذا الخطاب ، وفيه إشارة أيضاً إلى الرغبة في تعميق هـــذه الصور الفظيعة المنكرة في وجدان كل راء لتكون زجراً بليغاً للناس جميعاً.[3]

(١) من الآية ٣٢ ص.
(٢) من الآية ١٢ السجدة.
(٣) ينظر خصائص التركيب ١٤٦ – ١٤٧.

ب-تعريف المسند إليه بالعلمية :

يؤتى بالمسند إليه علما للأغراض الآتية :

١-إحضـــاره بعينه فى ذهن السامع ابتداء باسم يخصه ليكون متميزا عن جميـــع مـــا عداه ، كقوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾(١) وقوله ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(٢) وقول الشاعر :

الله يعلـــم مـــا تركـــت قـــتالهم   حـــتى علـــوا فرســـى بأشقر مزبد

وقوله :

أبـــو مـــالك قاصـــر فقـــره   علـــى نفســـه ومشـــيع غـــناه

فقـــد جئ بالمسند إليه فى الأمثلة المذكورة علما ليكون مدلول المسند إلـــيه حاضرا بعينه فى ذهن السامع بحيث يكون متميزا لديه عن جميع ما عداه فتلتفت إليه نفس السامع.

٢-تعظـــيم المسند إليه أو إهانته ، وذلك فى مقام المدح أو الذم إذا كان فى اســـمه أو لقـــبه أو كنيـــته ما يصلح لإفادة المدح أو الذم، كما فى قول المتنبى :

أبـــو المســـك لا يغنى بذنبك عفوه ∴ ولكـــنه يغـــنى بعـــذرك حقـــده

(١) سورة الإخلاص ١.

(٢) سورة الأنعام ١٢٤.

المقـــام هـــنا للمدح ولذا جئ المسند إليه من الكنى الدالة على المدح فقيل: أبو المسك ، وقد يكون فى الاسم نفسه ما يشعر بالمدح كقولك: ضياء جاء، وسرور قادم، كما يكون في الاسم ما يشعر الذم، كقول امرئ القيس.

لقـــد طمـــح الطماح من بعد أرضه ... ليلبســـنى مـــن دائـــه مـــا تلبســـا

فقد استخدم الطماح وهو اسم لرجل من بنى أسد للدلالة على الذم.

٣- قصـــد التفاؤل بذكر المسند إله أو التطير، وذلك عندما يدل اللفظ على شئ من ذلك، كقولك فى التفاؤل: سعد فى دارك، وناجح عندك، وفى التطير: السفاح قدم، واللص فى بيتك.

٤- إيهام أنه لا يزول عن الخاطر ، كقولك : ليلى أحبتنى.

٥- التبرك به كقولك عن النبى ﷺ سيدنا محمد رائدنا، أو شفيعنا.

٦- القصد إلى أن يكنى به عن معنى يصلح له الاسم، نحو : أبو لهب فعل كذا، كناية عن كونه من أصحاب جهنم، وكقولك : أبو المجد فعل كذا، فهو وإن كان علماً لكنه قبل نقله إلى العلمية كان معناه : أصل المجد، ومـــن هـــنا جـــاز لنا بعد نقله إلى العلمية أن نقصد إلى هذا المعنى الأصلى بطريق الكناية.

جـ - تعريف المسند إليه باسم الإشارة :

يؤتى به اسم إشارة لدواع بلاغية أهمها :

١- تمييز المسند إليه أكمل تمييز إذا اقتضى الحال ذلك، كأن يكون المقام للمـدح، أو يكون المسند إليه مختصاً بحكم غريب خارج عن المألوف فتمييز المسند إليه حينئذ وإحضاره باسم الإشارة الذى يجعله كأنه مشاهد محس يكون أعون على كمال المدح أو كمال التنويه بمن اختص بالحكم الغريب، ومن المدح أو كمال التنويه بمن اختص بالحكم الغريب ، ومن المدح قول ابن الرومى :

هـذا أبو الصقر فرداً فى محاسنه ... مـن نسل شيبان بين الضال والسلم

يمدحـه بأنـه من سكان البادية وقد جمع من الصفات الكريمة قدراً جعله فرداً فى تلك الصفات ويقول أنه من قوم عظام ولذلك جاء المسند إليه اسم إشارة ليميز أكمل تمييز.

ومثله قول الشاعر :

أولـئك قـوم إن بنوا أحسنوا البنا ... وإن عاهدوا أوفوا وان عقدوا شدوا

يمدحهم بأنهم بناة للمكارم وأوفياء للعهود أن لهم عزماً وبأساً ولذلك ميزهم باسم الإشارة (أولئك) ليكونوا كالمشاهدين المحسين.

ومنه قول المتنبى يمدح سيف الدولة :

أولـئك أتـياب الخلافـة كلهـا ... وسـائر أمـلاك الـبلاد الـزوائد

لما كان المقام للمدح عبر عنهم باسم الإشارة ليميزهم أمام السامعين أكمل تمييز.

ولا يخفى أن في أنياب الخلافة استعارة رائعة من نوع الاستعارة بالكناية، مثال ما اشتمل على غرابة في الحكم قول ابن الراوندي :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه ... وجاهل جاهل تلقاه مرزوقاً

هذا الذي ترك الأوهام حائرة ... وصير العالم النحرير زنديقاً[1]

جئ بالمسند إليه اسم إشارة (هذا الذي) قصداً إلى تمييزه أكمل تمييز لما اختص به من حكم غريب – وهو أن أصحاب العقول الكاملة ضاقت بهم سبل العيش بينما يعيش الجهلاء في سعة من الرزق– ترك العقول حائرة والعالم النحرير زنديقاً خروج هذا الحكم عن منطق العقل والحكمة.

٢– التعريض بغباوة السامع وأن الشئ لا يتميز عنده إلا بالحس ، كقول الفرزدق :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع

عبر بأولئك ليفيد بأن جريرا من الغباء بمكان بحيث لا يدرك فضل هؤلاء إلا عن طريق الإشارة الحسية.

ويمكن أن يكون البيت شاهداً للغرض الأول وهو تمييز الممدوحين أكمل تمييز، ومن التعريض بغباوة السامع قولك لمن يعبث في المسجد: هذا

---

(١) عاقل الثاني نعت للأول ، وجاهل الثاني نعت للأول، أي كامل العقل وكامل = الجهل، والأوهام : أريد بها العقل ، والنحرير : الحاذق الماهر، والزنديق المنحرف في العقيدة.

بيــت الله، وقولك لمن يستخف بتلاوة القرآن: هذا كلام الله، لأن العبث فى المسجد والإعراض عن تدبر القرآن دليل على غباء السامع وأنه فى الأول لا يمــيز بين المسجد وغيره من الأمكنة وفى الثانى لا يميز بين كلام الله ســبحانه وكــلام غيره من حيث وجود الإنصات قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(١) ولــذا عبر لــه عن ذلك بالإشارة الحسية.

٣- القصد إلى تعظيم المسند إليه بالقرب، بأن ينزل قربه من النفس منزلة قــرب المســافة فيعبر عنه باسم الإشارة الموضوع للقريب تعظيماً له، كقوــله تعــالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(٢) وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾(٣) وقــولــــه: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾(٤) فالتعبير باسم الإشارة فى الآيات لتعظيم المسند إليه.

٤- القصــد إلــى تحقــير المســند إلــيه بالقرب فيعبر عنه باسم الإشارة الموضوع للقريب، وذلك لأن الأمر الحقير لا يمتنع عن الناس بل يكون قريــب الوصول سهل التناول واقعاً بين أيديهم فالحقارة تناسب القرب المكانى وتلزمه بوجه ما، ولذلك تنزل دنو منزلته منزلة قرب المسافة، كقوــله تعــالى -حكايــة عــن المشركين فى استهزائهم بالرسول ﷺ

(١) سورة الأعراف ٢٠٤.
(٢) سورة الإسراء ٩.
(٣) سورة آل عمران آية ٦٢.
(٤) سورة آل عمران آية ١٩١.

﴿أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾[١]- وقوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾[٢] ففى الأمثلة الثلاثة جاء المسند إليه اسم إشارة للقريب للدلالة على ما يقصد إليه من معنى التحقير بتنزيل دنو المنزلة والانحطاط منزلة قرب المسافة.

٥- القصد إلى تعظيم المسند إليه بالبعد فيعبر عنه باسم الإشارة الموضوع للبعيد تنزيلاً لبعد درجته وعلو مكانته منزلة بعد المسافة، وذلك لأن الأمر العظيم يتأبى على الناس ويبتعد عنهم لجلاله ورفعة شأنه، ولذا كان التعظيم مناسباً للبعد المكانى ومستلزماً له بوجه ما، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿الم ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٣] جاء المسند إليه اسم إشارة للبعيد للتعظيم، إشارة إلى بعد درجته فى الهداية، وقوله تعالى — حكاية عن امرأة العزيز ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾[٤] لم تقل فهذا- وهو حاضر معهن رفعاً لمنزلته فى الحسن واستحقاقاً لأن يحب ويفتتن به واستبعاداً لمحله[٥] وقوله تعالى ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾[٦] عبر عن الجنة باسم الإشارة البعيد تعظيماً لها وقصداً إلى بيان علو منزلتها ومكانتها.

(١) سورة الفرقان ٤١.
(٢) سورة العنكبوت ٦٤.
(٣) سورة البقرة ١ ، ٢.
(٤) سورة يوسف ٣٢.
(٥) الكشاف جـ٢ صـ٣١٨.
(٦) سورة الأعراف ٤٣.

٦- القصد إلى تحقير المسند إليه بالبعد فيعبر عنه بأسم الإشارة الموضوع للبعيد تنزيلاً لبعده عن ساحة عز الحضور والخطاب منزلة بعد المسافة لأن الأمر الحقير من شأنه أن لا يلتفت إليه الناس ويبعدوه عنهم، فمن هذا الوجه تكون الحقارة مناسبة للبعد المكانى كقولك : ذلك اللعين فعل كـــذا، عبرت عنه باسم الإشارة التى تدل على البعد -مع أنه حاضر- تحقـــيراً له وتـــنزيلاً لحقارته وعدم الالتفات إليه منزلة بعد المسافة ، وكقوله تعالى:﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾(١).

٧- التنبـــيه على أن المشار إليه الموصوف بوصف أو أوصاف جدير -مـــن أجل ما وصف به- باستحقاقه ما ذكر بعد اسم الإشارة من جزاء حســـناً كان ذلك الجزاء أو سيئاً، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٢) عقـــب المشار إليه وهو -الذين يؤمنون- بأوصاف متعددة من الإيمان بالغيب وإقام الصلاة ... إلخ ثم عرف المسند إليه باسم الإشارة تنبيهاً على أن المشار إليهم أحقاء بمـــا يـــرد بعد أولئك وهو كونهم على الهدى عاجلاً فى الدنيا والفوز بالفلاح آجلاً من الآخرة من أجل اتصافهم بالأوصاف المذكورة(٣).

---

(١) سورة الماعون ١ ، ٢.

(٢) سورة البقرة ٢-٥.

(٣) الكشاف جـــ١ صـــ١٤١.

ومــن ذلــك قولك : الطالب المجد هو الذى لا يؤخر عمل اليوم إلى الغــد ويتفانى فى أداء واجبه ثم يتوكل بعد ذلك على الله سبحانه ذلك جدير بأن يكون من الأوائل ويستحق المكافأة، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾(١) فقد أشير إلى الكاتمين ما أنزل الله إلــيهم بأولــئك للتنبيه على أنهم يستحقون هذا الجزاء الحاسم من أجل ما وصفوا به.

د- تعريف المسند إليه بالموصولية :

يشــير الإمام عبد القاهر إلى جانب من أسرار التعريف الموصولية عــند حديثه عن "الذين" فيقول: "إعلم أن لك فى الذى علما كثيراً، وأسراراً جمــة وخفايا إذا بحثت عنها وتصورتها اطلعت على فوائد تؤنس النفس، وتثلج الصدر بما يفضى بك إليه من اليقين، ويؤديه إليك من حسن التبيين ، والوجه فى ذلك أن تتأمل لأى غرض وضع، وأشياء وصفوه بها.

فمن ذلك قولهم: إن "الذى" اجتلب ليكون وصلة إلى وصف المعارف بــالجمل كما اجتلب "ذو" ليتوصل به إلى الوصف بأسماء الأجناس، يعنون بذلك أنك تقول: مررت بزيد الذى أبوه منطلق ، وبالرجل الذى كان عندنا أمــس، فتجدك قد توصلت بالذى إلى أن ابنت زيداً من غيره بالجملة التى هى قولك: أبوه منطلق، ولولا "الذى" لم تصل إلى ذلك، كما تقول : مررت

(١) سورة البقرة ١٥٩.

برجل ذى مال، فتتوصل "بذى" إلى أن تبين الرجل من غيره بالمال، ولولا "ذو" لـــم يــتأت لك ذلك إذ لا تستطيع أن تقول: برجل مال، ويذكر كلا ما كثيرا حول استخدام "الذى" ثم يقول : "وعلى الجملة فكل عاقل يعلم بون ما بيـــن الخبر بالجملة مع الذى وبينها مع غير الذى، فليس من أحد به طرق إلا وهــو لا يشك أن ليس المعنى فى قولك: هذا الذى قدم رسولاً، كالمعنى إذا قلــت : هذا قدم رسولا من الحضرة، وليس ذاك إلا أنك فى قولك: هذا قـــدم رسولا من الحضرة، مبتدئ خبراً بأمر لم يبلغ السامع ولم يبلغه، ولم يعلمه أصلاً.

وفـــى قولـــك: هـــذا الذى قدم رسولاً، معلم فى أمر قد بلغه أن هذا صاحبه، فالجملة مع الذى ينبغى أن تكون جملة قد سبق من السامع علم بها فاعرفه فإنه من المسائل التى من جهلها جهل كثيراً من المعانى ودخل عليه الغلط فى كثير من الأمور[1]"

ويذكـــر البلاغـــيون أنـــه يؤتى بالمسند إليه اسم موصول لدواع بلاغية تقتضى ذلك ومنها :

١- عدم علم المخاطب بالأحوال المختصة بالمسند إليه سوى الصلة كقولك لزميلك: الذى كان معنا بالأمس رجل عالم، فقد جئ بالمسند إليه معرفاً بالموصـــولية لأن المخاطب لا يعلم من أمره شيئاً سوى أنه كان معهم بـــالأمس، وكقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم

(١) دلائل الإعجاز ١٩٩-٢٠١.

﴿مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾[١] فالقرآن يحدثنا عما قاله مؤمن آل فرعون لقومه يحذرهم فيه عاقبة تكذيب موسى أو التعرض له، وقد جاء المسند إليه اسم موصول لأن المخاطبين لم يعرفوا من أمر هذا الرجل إلا أنه آمن بموسى عليه السلام، ولذلك تعينت الصلة طريقاً إلى التعريف بالرجل، وقوله تعالى ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾[٢] فالقرآن يحدثنا أن أحد الرجلين مشايع لموسى والآخر مناوئ له وما أن رآه مشايعه حتى استغاث به فكان ما حدث من قتل موسى عليه السلام للرجل، فالمخاطبون لا يعلمون من أمر هذا الرجل إلا أنه من شيعة موسى فعبر عنه بالصلة التي يعهدونها.

٢- استهجان التصريح بالاسم، بأن يكون معناه منفراً، كقولك: الذي يخرج من أحد السبيلين ناقض للوضوء، عبرت عنه بالموصولية لأن في مدلوله ومعناه قبحاً ونفرة، ومنه على رأي بعض البلاغيين قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾[٣] بناء على أن امرأة العزيز (زليخاء) قد أرادت من سيدنا يوسف عليه السلام أن يجلس منها مجلس الرجل من أهله فامتنع، ولشناعة الحادث -بحيث يستهجن ذكر اسم الداعية إليه- ترك التصريح باسمها وعبر عنها باسم الموصول.

(١) سورة غافر الآية ٣٠.
(٢) سورة القصص ١٥.
(٣) سورة يوسف ٢٣.

لكــن المشـــهور أن التعبير باسم الموصول في الآية إنما جاء لزيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام، وهو نزاهة يوسف عليه السلام وطهارة ذيلـــه، والتعبيـــير باسم الموصول أدل على ذلك من قوله امرأة العزيز أو زليخا، لأن كونه فى بيتها ومولى لها يوجب قوة تمكنها من المراودة ونيل المراد فإباؤه عنها وعدم الانقياد لها يكون غاية فى النزاهة والطهارة.

٣- أن يكـــون الغرض تفخيم المسند إليه وتعظيمه كقوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[(١)] فإن فى هذا من التفخيم ما لا يخفى، لأن المراد أن مـــا أحـــاط بأولئك القوم من الماء لا يدركه وهم ولا يحده وصف ولهذا عبر (بما) الموصولة المبهمة، ومنه قول الشاعر :

مضى بها ما مضى من عقل شاربها ... وفـــي الـــزجاجة بـــاق يطلب الباقى

فالتعبير بالموصول (ما مضى) فيه إبهام لبيان أن ما حدث لا تحيط به العبارة ولا يعلم مقداره.

٤- التنبـــيه علـــى خطـــأ من المخاطب أو غيره، ومن ذلك قول عبدة بن الطبيب.

إن الذيـــن تـــرونهم إخوانكـــم ... يشـــفى غليل صدورهم أن تصرعوا

فهـــو يحـــذر أبناءه من وثوقهم بجماعة يحسبونهم إخواناً لهم لكنهم يتمـــنون لهم السوء ولذا كان التعبير بالموصول دالا على التنبيه لهم على الخطأ الذى وقعوا فيه، ومنه قول الشاعر :

إن الذيـــن حســـبتهم فـــى عسرة ... هـــم أثـــرياء يملكـــون ضـــياعاً

---

(١) سورة طه ٧٨.

عبر باسم الموصول لتنبيه المخاطب على الخطأ فى ظنه وحسبانه.

٥- أن يكون الغرض تشويق السامع إلى ما يذكر بعد وفى مضمون الصلة ما يشوق إليه كما تقول إن الذى اهتز له إيوان كسرى مبعث النبى ﷺ وقولك: الذى يقف فى وجه الحاكم فلان، ففى مدلول الصلة فى المثالين مـــن الغرابة ما يحرك فى النفس عوامل الشوق لأن تعرف ذلك الذى اهتز له إيوان كسرى، أو الذى يقف فى وجه الحاكم فيتمكن الكلام من النفس فضل تمكن.

٦- الإيمـــاء إلـــى طـــريق بناء الخبر بمعنى الإتيان بالموصول والصلة للإشـــارة إلى أن بناء الخبر عليه من أى وجه وأى طريق من الثواب والعقاب أو المدح والذم، وحاصل ذلك: أن تأتى بالفاتحة على وجه ينبئ الفطـــن على الخاتمة، فإذا قلت : الذى يواظب على الحضور، فلابد أن يتوقع المخاطب أن يكون الخبر فوزاً فى نهاية العام، فإذا ذكرت الخبر وقلـــت: يجتاز الامتحان بنجاح كنت قد أوحيت وأشرت إلى هذا الخبر فى بداية الكلام، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1] لأن فى مدلول الصلة -وهو الاستكبار- مـــا يشـــير إلـــى أن الخبر المبنى عليه أمر من جنس العقاب والإذلال بخلاف ما لو ذكرت اسماؤهم الأعلام، وقـــوله تعـــالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[2] ففى مدلول

---

(١) سورة غافر ٦٠.

(٢) سورة الكهف ١٠٧.

الصـــلة -وهو الإيمان والعمل الصالح- ما يدل على أن الخبر المحكوم به من نوع الإثابة، والجزاء الحسن.

وربمـــا جعل الإيماء إلى نوع الخبر وسيلة إلى تعظيم أمراً والتهوين من شأنه، فمثال التعظيم قول الفرزدق :

إن الـــذى ســـمك الســـماء بنى لنا بيـــتا دعائمـــه أعـــز وأطـــول

يقـــول: إن الـــذى رفع السماء بنى لنا مجداً وشرفاً لا يطاولهما شئ وجعـــل قبيلتنا سيدة القبائل وقد عبر عن المسند إليه بالموصول وهو يومئ إلـــى أن الخـــبر المترتـــب عليه من نوع الأبنية الفخمة مع ما في هذا من الـــتعريض بتعظيم شأن بيته، لأن بانيه هو ذلك الذى رفع السماء وأى بناء أرفـــع وأروع مـــن ســـماء هـــى صنع ذلك القادر المبدع؟ ولو عبر بغير الموصول لتغير المعنى.

ومـــنه قولـــه تعـــالى: ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾(١) التعظـــيم هـــنا شأن غير الخبر والتعبير بالموصول في الآية يومئ إلى أن طريق بناء الخبر مما ينبئ عن الخيبة والخسران وتعظيم شأن شعيب عليه السلام.

ومـــثال مـــا جعل ذريعة إلى الإهانة لشأن الخبر قولك: إن الذى لا يعـــرف الفقه صنف فيه كتاباً أو أن الذى لا يجيد التفكير كتب مقالاً، ففى الصـــلة في المثالين إيماء إلى أن الخبر المترتب عليهما من نوع التصنيف

(١) سورة الأعراف ٩٢.

والإنشاء وفيهما مع ذلك تعريض بالتهوين من شأن الكتاب أو المقال وإنهما من النوع الساقط المبتذل لأنهما صنع من لا يحسن التصنيف والتفكير.

هـ- تعريف المسند إليه بالإضافة :

المقصـــود بـــتعريف المســـند إليه بالإضافة : إضافته إلى شئ من المعارف وذلك لدواع بلاغية يقتضيها المقام ومن أهمها :

١- الاختصـــار لكـــون الإضافة أقصر طريق إلى إحضار المسند إليه فى ذهن السامع كقول جعفر بن علبة الحارثى :

هـــواى مع الركب اليمانين مصعد ... جنيـــب وجـــثمانى بمكـــة موثق[(١)]

فمعنى هواى أى الذى أهواه، عبر عنه بالإضافة للاختصار المطلوب فى هذا المقام وهو الضيق وفرط السآمة لكونه فى السجن وحبيبه راحل مع هؤلاء القوم، ومثله قول الشاعر :

مناى طواه الموت وانفض سامره ... ودارت علـــى صـــفو الحياة دوائره

لقـــد أمضـــه الألم لفقد حبيبه لأنه ودع بعده مباهج الحياة ولذا جاء بالمسند إليه معرفاً بالإضافة للاختصار بسبب ما فيه من ضيق وألم.

٣- تضـــمن الإضافة تعظيماً لشان المضاف إليه أو المضاف أو غيرهما، فمـــثال الأول قولك : عبدى حضر، وعلمى فى خدمة الطلاب، أفادت الإضـــافة فى المثالين تعظيم شان المضاف إليه، ومثال الثانى قولك:

(١) هـــواى أى مهـــوى، مصـــعد، أى مبعد ذاهب فى الأرض، الجنيب : المجنوب المتتبع، الجثمان: الشخص موثق : مقيد.

عبد الخليفة ركب ، التشريف فى المثال للمضاف، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾(١) الإضافة فى الآية تفيد تشريف شأن المضاف وهم العباد بنسبتهم إلى الرحمن.

ومثال الثالث -تعظيم شأن غير المضاف والمضاف إليه- قولك: شيخ الأزهر زارنا ، الإضافة أفادت تعظيم شأن المتكلم وهو ليس مضافاً ولا مضافاً إليه، ومنه قولك عميد الكلية كلمنى.

٣- تضمن الإضافة تحقيراً للمضاف مثل : ولد اللص حاضر، وأخو المهمل قادم، أو للمضاف إليه مثل: ضارب زيد حاضر، وزميل على مهمل أو تحقير غيرهما مثل : ولد اللص يجالس زيداً وجليس السوء يصاحب عليا.

٤- إغناء الإضافة عن تفصيل متعذر مثل : اتفق أهل الحق على كذا واتفق مجلس الوزراء على الخطة، جاء المسند إليه فى المثالين معرفاً بالإضافة لتعذر التفصيل وهو ذكر كل واحد من أهل الحق باسمه، وكذا ذكر كل واحد من مجلس الوزراء باسمه، ومن هنا أغنت الإضافة عن هذا التفصيل.

وقد يكون هذا التفصيل ممكنا لكن يلجأ إلى الإضافة لأنه يمنع من التفصيل مانع، كتقديم بعض على بعض من غير مرجع، كقولك: حضر اليوم علماء البلد، أو قادة الجيش وصلوا، فإنه يمكن فى المثالين أن تذكر

---

(١) سورة الفرقان ٦٣.

الأسماء إلا أننا قد نذكر اسماً قبل آخر فيوقع ذلك في الحرج ولذا لجأنا في هذه الحالة إلى الإضافة.

و-تعريف المسند إليه بـ (أل) :

يؤتى بالمسند إليه معرفاً بـ "أل" لأغراض بلاغية منها :

١- الإشارة إلى معهود بين المتكلم والمخاطب، وذلك لتقدم ذكره صراحة أو كناية، فمما تقدم فيه ذكر المسند إليه صراحة قوله تعالى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾[١] فقد ذكر المصباح والزجاجة منكرين ثم أعيداً معرفين. وتلك هي لام العهد الصريحي، ومثال ما جاء فيه تقدم ذكر المسند إليه عن طريق الكناية قوله تعالى:﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾[٢] أي ليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لها[٣] وذلك لأن مريم كانت قد نذرت ما في بطنها للقيام على خدمة بيت المقدس، والذي يقوم بعبء هذه الخدمة لا يكون إلا ذكراً، فلما وضعتها أنثى قال متحسرة ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ وجاء قوله تعالى ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ للإشارة لمعهود سابق وهو قولها ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ فلفظ (ما) كناية عن الذكر باعتبار اختصاص التحرير بالمذكور.

---

(١) النور ٣٥.

(٢) آل عمران ٣٦.

(٣) الإيضاح ١٢٢.

٢- إفـــادة جـــنس الحقيقة، مثل قولك الرجل خير من المرأة أى أن جنس الرجل خير من جنس المرأة، والحرير أفضل من القطن، والدينار خير من الدرهم.

٣- الإشارة إلى بعض مبهم غير معلن من أفراد الحقيقة، مثل قوله تعالى: ﴿وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾[1] فالبعض فى الآية تدل علـــيه قرينة الأكل، وسيدنا يعقوب -عليه السلام- يخشى أن يأكل ابنه ذئب ما من أفراد جنس الذئاب، ولا يخشى أن تأكله كل الذئاب ، كما لا يخشـــى أن يأكله جنس الذئاب، لان الجنس أمر معنوى لا يأكل ولا يشرب.

(١) يوسف ١٣.

تنكير المسند إليه

يؤتى بالمسند إليه نكرة للأغراض البلاغية الآتية :

١-أن يقصد بالحكم إلى فرد غير معين إما لأن الغرض لا يتعلق بتعيينه وإن كان معينا ، وأما لأن المتكلم لم يعلم جهة من جهات التعريف ، كعلمية أو إشارة أو غير ذلك ، فمثال الأولى : قول الله تعالى ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾[1] أي فرد من أشخاص الرجال ، جاء المسند إليه منكرا لأنه لم يتعلق بتعيينه غرض ، لأنه لا يهم المخاطبين من هذا الحديث إلا ما حصل من هذا الرجل بغض النظر عن اسمه ، ومنه قول المتنبي :

وغاية المفرط في سلمه   كغاية المفرط في حربه

فلا قضى حاجته طالب   فؤاده يخفق من رعبه

اتجه الشاعر بدعائه إلى فرد ما يخفق قلبه رعبا من حادث الموت ما دام يعلم أن المصير واحد وأنه لا محالة آت.

ومثال الثاني – ما لا يعمل جهة من جهات تعريفه – قولك لزميلك : حضر هنا رجل وسأل عنك ، تقول هذا إذا لم تعرف اسمه ولا شيئاً يتعلق به ، فالقصد هنا إلى فرد ما.

---

(١) سورة القصص ٢٠.

٢-أن يقصـــد بـــالحكم إلـــى نوع خاص من أنواع الجنس ، كما فى قوله تعالى:﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[1] تنكر المسند إليه وهو (غشاوة) لأن القصـــد فـــيه إلى نوع خاص من أنواع الأغشية غير ما يتعارفه الناس وهو غطاء التعامى عن الحق والإعراض عن آيات الله.

ويذكـــر السـكاكى أن التنكير فى الآية للتعظيم ، أى غشاوة عظيمة تحجـــب أبصارهم بالكلية وتحول بينها وبين الإدراك ، لأن المقصود بيان بعـــد حـــالهم عن الإدراك والتعظيم أدل عليه وأوفى بتأديته ، ومن التنكير للنوعية قول الشاعر :

لكـــل داء دواء يســـتطب بـــه ... إلا الحماقـــة أعيـــت مـــن يداويها

التنكير فى البيت للنوعية ، إذ ليس المراد مطلق دواء وإنما الغرض نـــوع خـــاص منـــه وهو الملائم للداء، أى لكل داء نوع خاص من أنواع الأدوية ما عدا الحماقة.

٣-أن يقصـــد إفادة تعظيم المسند إليه أو تحقيره وأنه بلغ من ارتفاع الشأن أو الانحطاط مبلغا لا يمكن أن يعرف ، كقول ابن أبى السمط :

ولله مـــنى جانـــب لا أضـــيعه ... وللهـــو مـــنى والخلاعـــة جانـــب

يقـــول : إن الجانـــب الأكبر من تفكيره وعمله مبذول فى طاعة الله وابتغاء مرضاته أما اللهو والعبث فلهما الجانب الأدنى ، ولذا كان التنكير فـــى جانب الأول للتعظيم وفى جانب الثانى للتهوين من شأن جانب اللهو لديه بدلالة أنه يمدح نفسه برجحان الخير فيه.

---

(١) سورة البقرة ٧.

ومـــن التنكير للتعظيم قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾(١) يريد حـــياة عظـــيمة ، ويمكـــن أن يكون التنكير فى الآية للنوعية ، لأن الحياة المترتبة على القصاص نوع خاص من أنواع الحياة ، فحياة القصاص إنما تظهـــر فيمن له عدو يهم بقتله فإذا ارتدع الجانى عن جنايته بسبب الخوف من القصاص اكتسب المجنى عليه بقية حياته ، ومن التنكير للتحقير قولك: شعور بالكرامة عند الحر منجاة له من مواطن الذل ، أى شعور ضئيل.

٤-وينكر المسند إليه لإفادة التكثير أو التقليل ، مثال التكثير قولهم : إن له لإبلا وإن له لغنما ، يريدون الكثرة وأن له عددا وفيرا من الإبل والغنم، ومنـــه قوله تعالى ﴿قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾(٢) أى أجرا كثيرا ، فدل تنكير المسند إليه على إفادة التكثير فى الأجر ، ومنه قول الشاعر :

فقـــل لمـــن يدعـــى فى العلم معرفة حفظـــت شـــيئا وغابت عنك أشياء

تنكير أشياء يفيد معنى الكثرة ، أى غابت عنك أشياء كثيرة جداً من دقائق العلم.

ومـــن الأمـــثلة الـــتى اجتمع فيها التكثير والتعظيم قوله تعالى ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾(٣) أى رسل ذو عدد كثير ، أو ذو شأن عظـــيم وآيات عظام ، ولذا كان التكثير والتعظيم متغايرين مفهوما ، لأن التكثير يراعى فيه الكميات والمقادير ، والتعظيم يراعى فيه الحال والشأن كسمو القدر والشرف.

---

(١) سورة البقرة ١٧٩.
(٢) سورة الشعراء ٤٢.
(٣) سورة آل عمران ١٨٤.

ومن أمثلة تنكير المسند إليه للتقليل قوله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾(١) أى وشئ قليل من رضوانه أكبر من ذلـك كلــه ، لأن رضا الله سبب كل سعادة وفلاح للعبد لأن ذلك أكبر فى نفس العبد مما وراءه من النعم ، ومنه قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم – عليــه الســلام – ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾(٢) تنكير عذاب يفيد التقليل ، أى أنه يخاف عليه أن يصاب بشئ ما من عذاب الرحمــن ، لأن أقل عذاب من الله يحقق معنى الإيذاء فكيف بالكثير منه؟ ومــنه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾(٣) أى ولئن مسهم أدنى شئ من العذاب لأذعنوا واعترفوا بظلمهم لأنفسهم.

وقـد اجتمع التقليل فى قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾(٤) أى قليل يسير ، أو ضئيل هزيل ، والفرق بينهما : أن التقليل يراعى فيه جهة العدد ، والتحقير يراعى فيه جهة الشأن والقدر.

وصف المسند إليه

قـد يعمد الأديب أو البليغ إلى المجئ بالمسند إليه موصوفاً بوصف يســاعد علــى إبراز المعنى ووضوحه؛ ليتمكن فى ذهن السامع أو القارئ فضل تمكن ، ودواعى وصف المسند إليه كثير ومتنوعة منها :

(١) سورة التوبة ٧٢.
(٢) سورة مريم ٤٥.
(٣) سورة الأنبياء ٤٦.
(٤) سورة آل عمران ١٥٤.

١-أن يكون الوصف مبيناً للمسند إليه وكاشفاً عن معناه :

كقولـك : الجسم الطويل العريض العميق يحتاج إلى فراغ يشغله ، فكـل من الأوصاف الثلاثة وصف كاشف يبين الجسم بوجه ، والمجموع وصـف كاشـف بالغ مرتبة الجد ، إما لجعلها بمنزلة وصف واحد بمعنى الممتد في الجهات الثلاث ، وإما لجعل الوصف أعم من أن يكون واحداً أو متعدداً ، فالأوصاف الثلاثة (الطول والعرض والعمق) للمسند إليه (الجسم) ليسـت مجـرد وصف للمسند إليه فحسب ، ولكنها في مجموعها وصف للكشف والبيان عن معنى المسند إليه.[١]

٢-أن يكون وصف المسند إليه مخصصاً له ، والمراد بالتخصيص : إزالة الاحـتمال فـي المعارف ، وتقليل الاشتراك في النكرات كقولك : زيد الـتاجر عندنا ، فإن زيداً (المسند إليه) كان يحتمل التاجر وغيره ، فلما وصـفته بصفة مميزة له وهي (التاجر) رفعت الاحتمال عن المسند إليه وأصبح معيناً بكونه التاجر ، هذا بالنسبة للمسند إليه المعرفة.

ومثال الوصف للمسند إليه مع كونه نكرة : رجل عالم عندنا ، فرجل مسـند إليه نكرة ، و(عالم) صفة مميزة ومخصصة له ، وكان المسند إليه بحسـب الوضع محتملاً لكل فرد من أفراد الرجال ، فلما ذكرت الوصف (عـالم) قللـت ذلـك الاشتراك والاحتمال ، وخصصته بفرد من الأفراد المتصفة بالعلم.[٢]

---

(١) ينظر : المطول ص ٢٣٨ ، والأطول جـ ١ ص ٣٣٥ ، ٣٣٦.
(٢) ينظر : المطول ص ٢٣٩.

٣-أن يكون وصف المسند إليه مفيداً للمدح أو للذم أو للترحم.

فمثال الوصف للمدح : جاءني زيد العالم.

ومثال الوصف للذم : جاءني زيد الفاسق أو الجاهل ومثال الوصف المفيد للترحم : جاءني زيد الفقير.

٤-وقد يكون الوصف تأكيداً للمسند إليه ، وذلك إذا كان الموصوف متضمناً لمعنى ذلك الوصف ، وذلك كما في قولنا :

أمس الدابر كان يوماً عظيماً.

٥-أن يكون الوصف بياناً للمقصود من المسند إليه وتفسيره ، كما في قوله تعالى : ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[1] فلفظ كل من (دابة) و (طائر) مسند إليه ، والأول وصف بقوله (في الأرض) والثاني بقوله (يطير بجناحيه) والوصف في كل منهما من خواص الجنس — لبيان أن القصد فيهما إلى الجنس دون الفرد، وبهذا الاعتبار أفاد الوصف في كل زيادة التعميم والإحاطة، كأنه قيل : وما من دابة في جميع الأرضين السبع ، ولا طائر يطير في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم محفوظة أحوالها ، غير مهملة أمورها ، فزيادة كلمة (من) أفادت استغراق جميع أفراد الجنس ، وكأن المعنى : ما من واحد من أفراد هذين الجنسين بعمومهما سواكم إلا أمم أمثالكم.[2]

---

(١) سورة الأنعام من الآية ٣٨.

(٢) ينظر المطول ص ٢٣٩ ، والأطول ص ٣٣٨ : ٣٤١.

توكيد المسند إليه[1]

وحيناً يأتى المتكلم بالمسند إليه مؤكداً لأغراض بلاغية منها :

١-تقريـــر المسند إليه ، وتحقيق مفهومه ومدلوله فى ذهن السامع ، أعنى جعله مستقراً ثابتاً بحيث لا يظن السامع بالمسند إليه غيره ، وذلك مثل أن يقـــال : جـــاءنى زيد زيد ، فالمسند إليه (زيد) كرر مرتين للتأكيد حرصاً من المتكلم على وصول المعنى المراد من المسند إليه بدقة إلى ذهـــن السامع ، باعتبار أن المتكلم كان قد خاف أن يكون السامع غفل عن سماعه أولاً ، فكرره ثانياً ليسمعه المخاطب ، ويحمله على معناه، إذا كان انشغل بشئ عن سماع اللفظ الأول ، أو كان قد سمع ، لكن لم يلتفـــت إلـــى معناه لانشغاله عن فهمه ، فجئ بالمسند إليه مرة أخرى على سبيل التقرير.

٢-ويؤتى بالمسند إليه مؤكداً كذلك ؛ لدفع توهم السهو نحو : جاءنى زيد زيـــد ، وذلـــك إذا ظن المتكلم غفلة السامع عن سماع لفظ المسند إليه (علـــى نحو ما ذكر فى الغرض السابق) ، أو ظن المتكلم أن السامع جعـــل الجـــائى غـــير زيد، أو توهم أن الجائى عمرو – مثلاً – وأن المتكلم ذكر زيداً على سبيل السهو.

---

(١) يـــنظر المطـــول ص ٢٤٠ : ٢٤٢ ، والأطـــول جـــ ١ ص ٣٤٤ : ٣٥٠ ، وخلاصة المعانى لابن حسين المفتى تحقيق د/ عبد القادر حسين ص ١٦٩ : ١٧٠.

٣- وقد يؤتى بالمسند إليه مؤكداً لدفع توهم التجوز – أي التكلم بالمجاز – نحو قولنا : جاء السلطان نفسه ، لئلا يتوهم أن إسناد المجئ إلى السلطان مجاز والجائي بعض عساكره.

٤- ويأتي المتكلم بالمسند إليه مؤكداً لدفع توهم السامع عدم الشمول ، وذلك ما في قوله تعالى : ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾(١) فـ (الملائكة) مسند إليه وأكد بقوله (كلهم أجمعون) لئلا يتوهم أن المراد : هم بعض الملائكة لا كلهم ولا جميعهم ، فالتأكيد أفاد شمول الحكم بالسجود للملائكة كلهم وجميعهم ، لا بعضهم ، ومن ذلك أيضاً قولنا : جاء الطلاب كلهم أجمعون ، لئلا يتوهم أن بعضهم لم يجئ إلا أن المتكلم لم يعتد بهم.

٥- أو يؤتى بالمسند إليه مؤكداً لجعل الفعل الواقع من البعض كالواقع من الكل بناءً على أنهم في حكم شخص واحد ، وذلك واقع في كلام العرب – كما يقال : بنو فلان قتلوا زيداً ، وإن كان القاتل واحداً منهم، إلا أنه أسند المجئ إلى الكل ، تأكيداً على أن الفعل الواقع من أحدهم أو بعضهم كالواقع منهم كلهم أو جميعهم.

---

(١) سورة الحجر ٣٠.

بيان المسند إليه بالعطف[1]

والمراد بذلك (العنوان) تعقيب المسند إليه بعطف البيان ، وذلك لأغراض بلاغية شتى منها :

١-قصد إيضاحه باسم مختص به أى بالمسند إليه مثل : (قدم صديقك خالد) فالمسند إليه (صديقك) جاء معقبا بعطف البيان (خالد) قصداً لإيضاح من القادم ؛ لجواز أن يكون للمخاطب أكثر من صديق واحد ، ولا يلزم كون المذكور الثانى أوضح من الأول ؛ لجواز أن يحصل الإيضاح من اجتماعهما.

٢-وقد يأتى بالمسند إليه معقباً بالعطف المذكور لإفادة المدح ، وذلك كما فى قوله تعالى : ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾[2] ، فالبيت الحرام عطف بيان جئ به للمدح لا للإيضاح ؛ لأن الكعبة فى غاية الإيضاح لكل الناس ، إذ لا خفاء فيها ، فلا تحتاج إلى بيان ، ويكون القصد بالبيت الحرام الذى هو عطف بيان للكعبة لمجرد المدح ، وإنما كان كذلك ؛ لأن (البيت الحرام) فيه دلالة على أن الكعبة لا بد وأن تكون موصوفة بالحرمة ، وبتعظيم الاحترام ، والامتناع من كل امتهان وانتهاك ، ولا شبهة فى ذلك بوجه من الوجوه.

---

(١) ينظر المطول ص ٢٤٣ وما بعدها ، والأطول جـ ١ ص ٣٥٠ : ٣٥٢ وخلاصة المعانى ص ١٧٠ ، ١٧١.

(٢) سورة المائدة ٩٧.

الإبدال من المسـند إليه[1]

وأمـا الإبدال من المسند إليه فيكون لزيادة التقرير ، ولتثبيت الحكم والمسـند إليه فى ذهن السامع ، ومثال ذلك فى بدل المطابقة : جاء أخوك زيـد ، فـ (زيد) بدل من قوله (أخوك) الذى هو مسند إليه ، وكان من الممكـن أن يقال (جاء أخوك) دون ذكر زيد إلا نه بمجئ البدل (زيد) زاد التقرير وثبت الحكم (المجئ للأخ) فى ذهن السامع ، وهذا مثال لبدل الكل، وهو الذى يكون ذاته عين ذات المبدل منه ، وإن كان مفهومها متغايرين، أى فـإن (أخوك) مثلاً فى قولنا : (زيد أخوك) يفهم منه الأخوة ، وزيد لا يفهم منه ذلك.

والتقرير يحصل بالتكرير – وذلك باعتبار أن المقصود بلفظ (أخوك) هو (زيد) – حيث فى المثال المذكور تكرر المعنى الواحد بلفظين مختلفين، وهمـا لفظ المبدل منه ولفظ البدل ، فما يصدق عليه لفظ (أخوك) هو نفس ما يصدق عليه لفظ (زيد) ؛ لأن الأخ المقصود هو زيد.

ومثال الإبدال من المسند إليه فى بدل البعض ، وهو الذى يكون ذاته بعضـاً مـن ذوات المبدل منه : جاء القوم أكثرهم ، فالمبدل منه (القوم) مشتمل على البدل (أكثرهم) إجمالاً ؛ لأن مجئ القوم يستدعى مجئ الأكثر، و الأكثر بعض القوم.

---

(١) ينظر المطول ص ٢٤٥ : ٢٤٧ ، وخلاصة المعانى ص ١٧١ ، ١٧٣.

ومثال الإبدال من المسند إليه فى بدل الاشتمال ، وهو الذى لا يكون عيـن المـبدل منه ، ولا بعضه ، ويكون المبدل منه مشتملاً عليه (اى ما اشتمل المبدل منه فيه على البدل) لا كاشتمال الظرف على المظروف، بل مـن حيـث يكون مشعراً به أو دالاً عليه إجمالاً ، ومقتضياً له بوجه ما ، بحيـث تـبقى النفس عند ذكر المبدل منه متشوقة إلي ذكره منتظرة له ، فيجئ هو مبيناً وملخصاً لما أجمل أولاً.

وأقول والمثال لذلك النوع من البدل : (سلب زيد عقله أو ثوبه) فلفظ (عقله) و (ثوبه) ليس هو عين المبدل منه ، ولا بعضه ، بل إن المبدل منه (زيد) هو الذى اشتمل على العقل والثوب ، والمسلوب ليس هو نفس زيد ، ولكن شيئاً مما اشتمل عليه وهو العقل أو الثوب ، فذكر المسند إليه (زيد) أولاً ثـم ذكر البدل (عقله أو ثوبه) ثانياً على سبيل التفصيل بعد الإجمال ، أو التوضيح بعد الإبهام.

العطف على المسند إليه(١)

ويؤتى بالمسند إليه معطوفاً عليه لأغراض بلاغية منها :

١- تفصيل المسند إليه مع الاختصار ، وذلك إذا كان العطف بالواو مثل : جاءني زيد وعمرو ، فإن فى هذا المثال تفصيلاً للفاعل على أنه زيد وعمرو من غير دلالة على تفصيل الفعل وهو المجئ.

(١) ينظر المطول ص ٢٤٧ : ٢٥٠ وخلاصة المعانى ص ١٧٣ ، ١٧٥.

ولـــو قيل : جاء زيد وجاء عمرو ، لكان فيه تفصيل للفاعل أيضاً ، ولكنه بدون اختصار ؛ لأنه والحالة هذه يكون من باب عطف الجمل الذى طـــريقه الـــتطويل ، ولـــيس مـــن بـــاب العطف على المسند إليه المحقق للاختصـــار ، حيـــث إن فـــى مثل هذا القول – الأخير – تفصيلاً للمسند (الفعل) أيضاً ، ولذلك جاء تقييد تفصيل المسند إليه بقولنا (مع الاختصار).

٢-أن يعطـــف علـــى المسند إليه أيضاً إذا أراد المتكلم تفصيل المسند مع الاختصار إذا كان العطف بغير الواو، باعتبار أن الفعل يكون قد حصل مـــن أحد المذكورين أولاً ، وعن الآخر بعده متراخياً أو غير متراخ ، وذلك مثل وقلنا: جاءنى زيد فعمرو أوثم عمرو ، أو جاءنى القوم حتى خـــالد. فهذه الثلاثة تشترك فى تفصيل المسند (الفعل جاءنى) ، وتختلف من جهة أن الفاء تدل على أن ملابسة الفعل للتابع بعد ملابسته للمتبوع بلا مهلة ، و (ثم) كذلك مع مهلة ، و(حتى) مثل (ثم) ، إلا أن فيه دلالة على أن ما قبلها مما يقتضى شيئاً فشيئاً إلى أن يبلغ ما بعدها.

فالغـــرض من العطف بالفاء هنا هو : إثبات مجئ عمرو بعد مجئ زيد بلا مهلة ، حتى كأنه معلوم أن الجائى زيد وعمرو ، والشك إنما وقع فى الترتيب والتعقيب ، فيكون العطف لإفادة تفصيل المسند ، وكذلك الشأن فـــى (ثـــم) ، و (حتى) إلا أن (ثم) أفادت مجئ عمرو بعد مجئ زيد بمهلة وتراخ ، و (حتى) أشارت إلى أن مجئ القوم لم يكن جملة واحدة ، ولكنه كـــان على التراخى باعتبار أن مجئ القوم كان ينقضى شيئاً فشيئاً ، وكان بعضهم يأتى إثر البعض الآخر ، إلى أن انتهى مجيئهم.

٣-أن يكون العطف على المسند إليه لرد السامع عن الخطأ فى الحكم إلى الصـــواب ، وذلك كما فى قولنا : جاء زيد لا عمرو ، وذلك لمن اعتقد أن عمـــراً هو الذى جاء دون زيد ، أو اعتقد أنهما جاءا معاً أو جميعاً، وعلـــيه يكـــون المـــثال من باب قصر القلب إذا كان رداً على الاعتقاد الأول، ومـــن باب قصر الإفراد، إذا كان رداً على الاعتقاد الثانى ، مع ملاحظة أن حرف العطف المستخدم هنا هو الحرف (لا) المفيد لنفى ما وجب فى الأول ، وفى هذا الاستخدام رد إلى الصواب ببيان انفراد زيد بالمجئ دون عمرو .

ومن هذا القبيل أيضاً قولنا : ما جاء زيد لكن عمرو وذلك رداً على من زعم أن الجائى هو زيد لا عمر ، فتكون قد رددته إلى صوابه ، ولكن باســـتخدام حرف العطف (لكن) ، وفرق بين (لا ، ولكن) فى الاستعمال ، أن (لا) لـــنفى الحكم عن التابع ، بعد إيجابه للمتبوع ، أما (لكن) فلإيجاب الحكم للتابع بعد نفيه عن المتبوع.

٤-أن يكون العطف على المسند إليه لصرف الحكم عن المحكوم عليه إلى محكـــوم عليه آخر ، وفى هذه الحالة يكون حرف العطف المستخدم هو (بل) ، والمعطوف عليه إما أن يكون :

أ-**مثبـــتاً كقولنا** : جاء زيد بل عمرو ، ففى هذا المثال أفادت (بل) صرف الحكم (المجئ) عن زيد (المعطوف عليه) وأثبتته للمعطوف (عمرو).

ب-منفياً كقولنا : ما جاء زيد بل عمرو ، ويقال هنا عن (بل) مثل ما قيل في المثال الأول.

ففـــي كـــلا المثاليـــن صـــرف المجئ إلى المعطوف ، وجعل حكم المعطـــوف علـــيه كالمســـكوت عـــنه بالنسبة إلى المعطوف ، فإن (بل) للإضراب عن المتبوع ، وصرف الحكم إلى التابع ، ومعنى الإضراب أن يجعـــل المتـــبوع فـــي حكم المسكوت عنه ، يحتمل أن يلابسه الحكم وألا يلابســـه ، أي لا يثبت له الحكم ولا ينفى عنه ، بل يحتمل مجئ زيد وعدم مجيـــئه ، لا أن يـــنفى عنه الحكم قطعاً خلافاً لبعضهم الذي يقول : بنفي الحكم عن زيد قطعاً.

٥-أن يكون القصد من العطف على المسند إليه الإفادة بأن المتكلم شاك في الحكم ، أو يكون القصد هو إيقاع السامع في الشك ، أو إبهام الحكم على الســـامع ، أو أن يكون العطف على المسند إليه قصداً إلى التخيير بين أمريـــن أو إباحـــة الجمـــع بينهما ، وفي كل هذه الحالات يكون حرف العطف المستخدم هو (أو) والأمثلة على الترتيب هي :

أ-جـــاء زيد أو عمرو ، وذلك إذا كان المتكلم قد خالجه الشك ولا يدري من أيهما صدر المجئ.

ب-والمثال السابق نفسه يصلح لأن يكون مثالاً لغرض تشكيك السامع أو إيقاعـــه فـــي الشك ، حتى لا يعلم على وجه اليقين من أيها (زيد أو عمر) صدر المجئ ، وذلك لغرض ما في نفس المتكلم.

جـ-ومثال العطف على المسند إليه قصداً إلى إبهام الحكم على السامع أو السامعين قوله تعالى:﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(١)

والمعنى : إن أحد الفريقين (نحن أو أنتم) لعلى أحد الأمرين من الهدى أو الضلال ، فإما أن يكون المهتدون إيانا والضالون إياكم ، وإما العكس ، فالله يعلم الصادق منا ومنكم ، وإن أحد الفريقين لكاذب ، ففيه دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ، ومن هو فى الضلال المبين ، وقد أبهم الأمر على السامعين تفادياً لنسبتهم إلى الضلال؛ حتى لا يشتد عنادهم ، ويتيسر لهم سبل النظر إلى ما هم فيه خطؤهم، فيقلعون عن عنادهم ، ويدخلون فى الإسلام. (٢)

د-ومثال كل من التخيير والإباحة قولنا : ليدخل الدار زيد أو عمرو ، فإن كان المراد من الكلام هو الأمر بدخول أحدهما – بحسب – لا على التعيين ، فالكلام مبنى على التخيير ، وإن كان القصد هو الأمر بدخول أحدهما أو كليهما كان الكلام مبنياً على الإباحة ، وذلك على اعتبار أن الإباحة يجوز فيها الجمع بين التابع والمتبوع بخلاف التخيير.

(١) سورة سبأ ٢٤.
(٢) ينظر الكشاف جـ ٣ ص ٥٦٤ ، ومن أسرار النظم العربى جـ١ ص ١٨٣.

تعقيب المسند إليه بضمير الفصل[1]

ويؤتى بالمسند إليه معقباً بضمير الفصل لأغراض بلاغية منها :

١-تخصيص المسند إليه بالمسند ، أو بعبارة أخرى قصر المسند على المسند إليه ، وذلك مثل : زيد هو القائم ، فضمير الفصل (هو) يفيد أن المسند (القائم) مقصور على المسند إليه (زيد) لا تجاوزه إلى غيره كعمرو مثلاً ، ولذلك إذا أريد التأكيد والمبالغة قيل : لا عمرو.

ومنه قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾[2] والمعنى : لا يقبل التوبة من العباد إلا الله عز وجل.

فقبول التوبة مقصور عليه – جل شأنه ، لا يتعداه إلى غيره.

٢-وقد يكون تعقيب المسند إليه بضمير الفصل لإفادة مجرد التأكيد ، وذلك إذا كان التخصيص حاصلاً بدونه، بأن يكون في الكلام ما يفيد قصر المسند على المسند إليه نحو قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[3] ، والمعنى : لا رازق إلا هو سبحانه ، فالقصر حاصل بتعريف الطرفين (إن الله – الرزاق) وتوسيط ضمير الفصل بينهما – أي بين المسند إليه (لفظ الجلالة) والمسند (الرزاق) الواقع خبراً لـ (إن) – لمجرد التأكيد.

---

(١) سورة التوبة ١٠٤.
(٢) ينظر المطول ص ٢٥٠ : ٢٥٢ ، وخلاصة المعاني ص ١٧٥.
(٣) سورة الذاريات ٥٨.

ويكون أيضاً تعقيب المسند إليه بضمير الفصل لمجرد التأكيد إذا كان فـــى الكلام ما يفيد قصر المسند إليه على المسند نحو : الكرم هو التقوى ، والحسب هو المال ، أى لا كرم إلا التقوى ، ولا حسب إلا المال.

دواعى تقديم المسند إليه

يمـــتدح الإمام عبد القاهر باب التقديم بقوله "هو باب كثير الفوائد جم المحاســـن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفتر لك عن بديعة ، ويفضـــى بـــك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ، ويلطف لديـــك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شئ على شئ ، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان"(١) ثم عرض للتقديم والتأخير بأسلوب آخر ستتعرف عليه فى مرحلة تالية إن شاء الله تعالى.

هذا ويقدم المسند إليه فى الكلام لإفادة الاهتمام بشأنه ، ولهذا الاهتمام دواع من أهمها :

١-كونه الأصل فى بناء الجملة لأنه محكوم عليه ولا مقتضى للعدول عن تقديمه، كقولك : القطار قادم ، محمد ناجح.

٢-يقدم المسند إليه ليتمكن الخبر فى ذهن السامع لأن فى المبتدأ تشويقا إليه بأن يكون متضمنا ما يوجب الدهشة ويثير الغرابة ، كقول الشاعر :

والـــذى حـــارت الـــبرية فـــيه　　　حـــيوان مســـتحدث مـــن جمـــاد

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٠٦.

قـدم المسـند إليه ؛ لأن فيه تشويقاً إلى ذكر الخبر فقد اتصل به ما يدعـو إلى العجب فى قوله : حارت البرية فيه ، وهذا مما يثير فى النفس عوامل التلهف والتشوق إلى معرفة من أوقع الخليقة فى الحيرة؟ فإذا علمته بعد هذا التلهف تمكن فى النفس خير تمكن.

ومن ذلك قولك : الذي ملأ الأرض نوراً بدعوته محمد ﷺ.

٣-ويقدم المسند إليه لتعجيل المسرة أو المساءة لكونه صالحا للتفاؤل به أو التطير منه كقولنا فى التفاؤل : الجنة مأوى المتقين ، وقوله تعالى ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾(١) ، وخـير الله فى دارك ، وفى التطير قول الله سبحانه ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(٢) وقولك اللص فى بيتك.

٤-ويقـدم المسـند إليه للإشارة إلى إظهار تعظيمه أو تحقيره إذا كان فى اللفظ ما يوحى بذلك كقوله تعالى – فى التعظيم – ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾(٣) فى تقديم المسند إليه – السابقون – دلالـة علـى الاهـتمام بهم وإظهار تعظيمهم لما اتصفوا به من صالح الأعمال ، ومنه قولك: أبو المجد أستاذنا ، وأبو المعالى صديقنا ، ومثال التحقـير : قولـه تعالى ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ

---

(١) سورة مريم ٦٣.

(٢) سورة الحجج ٧٢.

(٣) سورة الواقعة ٩ – ١٢.

جَلْدَةٍ﴾[1] قدم المسند إليه للتشهير بالزانية وتحقير شأنهما والتنديد بهما ، ومنه قولك : أبو جهل مسافر .

٥-ويقدم المسند إليه لإيهام السامع أنه لا يزول عن الخاطر وذلك إما لأنه مما يستلذ بذكره كقول جميل:

بثينة ما فيها إذا ما تبصرت معاب ولا فيها إذا نسبت أشب

قدم المسند إليه (بثينة) ليوهم أنها لا تزول عن خاطره مع ما في ذكر اسمها من لذة له ، ومثله قولك : فاطمة حيتني ، زينب زارتني.

وإما لشدة الحاجة إليه كقول الفقير : الدرهم يسعدني ، وقول الجائع : الرغيف يشبعني وقولك : النصر غايتنا ، وإما لأنه مما يتيمن بذكره مثل : الله ولينا ، ومحمد ﷺ نبينا.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.[2]

٦-ومن أبرز دواعي تقديم المسند إليه إفادة تخصيص المسند إليه بالمسند ، كقولك أنا سعيت في حاجتك ، محمد الناجح ، علي الراسب ، ما شوقي قال هذا الشعر ، قدم المسند إليه في الأمثلة المذكورة لإفادة قصر المسند عليه بحيث لا يتجاوزه إلى غيره ، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.[3]

---

(١) سورة النور ٢.
(٢) سورة البقرة ٢٥٧.
(٣) سورة النور ٢.

تأخير المسند إليه

ويأتي المسند إليه مؤخراً إذا كان المقام يقتضى تقديم المسند لأهميته، وهــذا يعنى أن أغراض تقديم المسند هى نفس أغراض تأخير المسند إليه، ويتضح لنا ذلك أثناء الحديث عن أغراض تقديم المسند.

صور إخراج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر

قــد يستدعى ظاهر الحال – وهو الأمر الثابت في الواقع – صورة خاصــة لـيؤتى بالمسند إليه وفقا لها فيعكس الأمر ويؤتى به على خلاف مقتضي ظاهر الحال لأمر اقتضى ذلك فاعتبره المتكلم لسبب من الأسباب حمله على ذلك ، وحينئذ يقال أن المسند إليه قد خرج على خلاف مقتضى ظهر الحال ، ويكون ذلك علي صور منها :

وضع المضمر في موضع المظهر :

يوضع المضمر في موضع المظهر خلافا لمقتضي الظاهر ليتمكن ما يعده في ذهن السامع ويكون ذلك في موضعين :

أ-في باب نعم وبئس ، إذا جعل المخصوص خبرا لمبتدأ محذوف كقولك : نعــم بطــلا محمد ، وبئس رجلا زيد، مكان نعم البطل وبئس الرجل ، والفــاعل أى المســند إليه ضمير مستتر تقديره هو ، وذلك لأن ضمير الغيبة لا بد أن يتقدمه مرجع أو تدل عليه قرينة ، وليس هنا مرجع ولا قريـــنة ، فظاهــر الحال أن يؤتى بالمسند إليه اسماً ظاهراً فيقال : نعم الــبطل خــالد ، لكنه عدل عن ذلك إلى الإضمار ليحصل التفسير بعد

الإبهـام فيتمكـن فى الذهن ، وهذا مناسب لمقام المدح أو الذم ، وهذا لضـمير مفسـر بـنكرة نعـم جنس العقلاء فيحصل الإبهام فإذا ذكر المخصوص بالمدح أو الذم جاء البيان بعد ذلك الإبهام.

قلـنا أن هذا إنما يكون إذا جعل المخصوص خبرا لمبتدأ محذوف ، أما إذا جعل المخصوص مبتدأ ونعم بطلا خبره فليس من هذا الباب ، لأن الضمير حينئذ يكون له مرجع متقدم رتبة ، وأن تأخر لفظا وهو المبتدأ.

ب- ضـمير الشـأن أو القصـة ، كقوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[١] وقوله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[٢] ، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾[٣] المسند إليه فى الأمثلة ضمير الغائب أو الغائبة ولم يتقدم لهما مرجع ولا قرينة فكان مقتضـى ظاهـر الحال أن يجئ المسند إليه اسما ظاهرا فيقال مثلا: الشـأن الله أحـد ، فعدل عن الإظهار إلى الإضمار لزيادة التمكن فى ذهـن السامع لأنه إذا لم يفهم من الضمير فى ذهن السامع ، وفى هذا مـتعة العلم لدى السامع ومتعة دفع ألم الترقب والانتظار ، وإذا كان الضمير مؤنثاً سمى ضمير القصة ، كقولك : هى عائلة أم المؤمنين.

---

(١) سورة المؤمنون ١١٧.
(٢) سورة النور ٢.
(٣) سورة النور ٢.

وضع المظهر فى موضع المضمر :

ويكون ذلك لزيادة التمكن فى الذهن أيضاً ، بيان ذلك أنه إذا تقدم موضـــع الضمير أو دلت عليه قرينة ما كان المقام للإضمار كما سبق إلا أنـــه قــد يوضع المظهر فى موضع المضمر إذا كان المسند إليه (المظهر) اسم إشارة أو علماً أو معرفاً بأل أو بالإضافة ولكل حالة من ذلك دواع نذكرها على النحو التالى :

أ-فإن كان ذلك المظهر اسم إشارة كان إظهاره للأغراض الآتية :

١-كمـــال العـــناية بتمييزه أكمل تمييز لاختصاصه بحكم غريب كقول ابن الراوندى :

كـم عــاقل عــاقل أعيــت مذاهبه وجــاهل جــاهل تلقــاه مــرزوقا
هــذا الــذى تــرك الأوهــام حائرة وصــير العــالم الــنحرير زنديقا

فاسم الإشارة يشير إلى حكم سابق غير محسوس وهو حرمان العاقل ورزق الجــاهل فكـــان القياس الإضمار فيقال : هو فعدل إلى إسم الإشارة لكمال تمييزه أكمل تمييز فأبرزه فى معرض المحسوس ، والحكم الغريب : كون العاقل محروما والجاهل مرزوقاً.

ومنه قول الشاعر :

كــم عــاقل عــاقل لا زال فى عسر وجــاهل جــاهل لا زال فــى يسر
تحــير الــناس فــى هذا فقلت لهم هــذا الــذى أوجب الإيمان بالقدر

أظهر المسند إليه – اسم الإشارة – لاختصاصه بحكم غريب بديع هو وجوب الإيمان بالقدر.

٢-التهكم بالسامع والسخرية من غباوته كما إذا كان فاقد البصر وخاطبه إنسان بقوله : هذا متاعك ، أو هذه حقيبتك وهو يعلم أنه لا يرى المشار إليه لكنه يقصد السخرية منه ، ومن ذلك قول الفرزدق يهجو جريرا:

أولـئك آبـائى فجئـنى بمـثلهم إذا جمعتـنا يـا جريـر المجامع

٣-النداء على كمال بلادة السامع وأنه لا يدرك غير المحسوس بالبصر كقولـه تعـالى ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾[1] مقتضى الظاهر أن يقال:

هـى النـار ، أفسحر هو ، لكن عدل عن الإضمار إلى اسم الإشارة للدلالة على كمال بلادة الكافر وأنه لا يدرك إلا المحسوس المشار إليه.

٤-النداء علـى كمـال فطنة السامع وأن المعقول عنده كالمحسوس فى الوضوح والظهور ومن ذلك قول الأستاذ بعد تقرير مسألة دقيقة : وهذا واضح عند الذكى.

٥-وقـد يوضـع اسم الإشارة فى موضع المضمر لتعظيم المشار إليه أو تحقـيره بالقـرب أو بالبعد ونحو ذلك ، كقولك : هذا كتاب الله ، وهذا عدونا وقوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[2] وكقولك : ذلك العدو لا خير فيه.

(١) سورة الطور ١٣ – ١٥.
(٢) سورة البقرة ٢.

ب-وإن كـــان المظهـــر غير اسم الإشارة فيكون وضعه موضع المضمر للأغراض الآتية :

١-زيــادة التمكــن فـــى ذهن السامع، كقوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾(١) لم يقل هو الصمد لأن الاسم الظاهر لما وقع فى غير موقعه كان كحدوث شئ غير مترقب ، وهذا من شأنه أن يستقر فى النفس على خير وجه ، ومنه قوله تعالى ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(٢) لـــم يقل أنه قوى عزيز لزيادة تمكن المعنى فى ذهن السامع ، ومنه قول دريد بن الصمة:

أمـــر تهمـــو أمرى بمنعرج اللوى ... فلم يستبنوا النصح الأحضى الغد

ومـــا أنـــا إلا من غزية ان غوت ... غويـــت وان ترشـــد غزية أرشد

فوضع غزية فى الشطر الثانى – وهى اسم ظاهر – مكان المضمر لزيادة تقرير المعنى وتمكينه فى نفس السامع.

٢-إدخال الروع فى ضمير السامع وتربية المهابة أو تقوية داعى المأمور أو المـــنهى عنه مثل: أمير المؤمنين يأمر بكذا ، بدل قول الخليفة : أنا آمـــر بكذا، وعلى هذا قوله تعالى ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(٣) بدل : إنه يحب المتوكلين.

(١) سورة الصمد ١ ، ٢.
(٢) سورة المجادلة ٢١.
(٣) سورة آل عمران ١٥٩.

٣-الاستعطاف كقولك أمام الحاكم : أيأذن لى مولاى أن أتكلم؟ مكان أتأذن لى؟ ومنه قول الشاعر :

إلهـــى عـــبدك العاصـــى أتاكـــا   مقـــرا بـــالذنوب وقـــد دعاكـــا

لـــم يقل : أتيتك ، لأن لفظ عبدك يفيد معنى الضراعة والخضوع لله والاستعطاف.

٤-التصـــريح بعلـــة الحكم كقوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾(١) مكان : واستغفرت لهم ، لأن شفاعة الرسول ﷺ ليست بالأمر الهين ويرجوها كل مسلم فلذلك وضع اسمه عليه ﷺ ظاهرا مكان إضماره.

٥-ربمـــا يكـــون وضع المظهر فى موضع المضمر لإصلاح الكلام ، بأن يقصـــد التوصـــل بالظاهر إلى الوصف كما فى قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾(٢) عدل عن الإضمار ولم يقل : فآمنوا بالله وبى ، إلى الإظهار ليتأتى إجراء وصف النبى وما بعده عليه ، لأنه الضمير لا يوصف ، وفيه بعد عن التعصب لنفســـه فكأنـــه يقول : فآمنوا بالرسول الذى هذه أوصافه سواء كان هذا الرسول أنا أو واحدا غيرى على هذه الأوصاف.

(١) سورة النساء ٦٤.
(٢) سورة الأعراف ١٥٨.

ورود ضمير الخطاب على خلاف مقتضى الظاهر

قد يؤتى بضمير الخطاب على خلاف مقتضى الظاهر ، وذلك لأن المعروف أن أصل الخطاب أن يكون لمعين فيعدل عن ذلك ويوجه الخطاب إلى كل من يتأتى خطابه دون أن يقصد بالخطاب إنسانا بعينه كقول الشاعر :

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه؟

وقوله :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

فضمير الخطاب في البيتين غير مقصود به مخاطبا معينا كما هو الأصل في الخطاب وإنما أريد به مطلق مخاطب لاشتهار الأمر وظهوره لكل من يسمعه ، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[1] الخطاب في الآية لكل من يتأتى مخاطبته لبيان أن حالة المجرمين من الإذلال قد تناهت في الافتضاح إلى درجة يمتنع خفاؤها ، فلا تختص الرؤية حينئذ براء دون آخر ، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾[2] ، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[3] فالخطاب لا يقصد به معينا لاشتهار هذا الأمر ووضوحه وكذا قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.[4]

(١) سورة السجدة ١٢.
(٢) سورة الأنعام ٢٧.
(٣) سورة الأنعام ٣٠.
(٤) سورة سبأ ٥١.

الالتفات

من صور إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر نقل كل واحد من التكلم والخطاب والغيبة إلى الآخر ، ويسمى البلاغيون هذا النقل التفاتا، وهو مأخوذ من التفات الإنسان من يمينه إلى يساره وبالعكس.

وقد اختلف البلاغيون في تعريفه ، فنرى الجمهور يعرفونه تعريفا والسكاكي يعرفه تعريفا آخر ، وسنذكر كلاً من التعريفين دون التعرض للتفاصيل.

تعريف السكاكي للالتفات : بعد أن ذكر في المفتاح صورا من إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر قال : "هذا غير مختص بالمسند إليه ولا بهذا القدر، بل التكلم والخطاب والغيبة مطلقا ينقل كل واحد منها إلى الآخر ويسمى هذا النقل التفاتا عند علماء المعاني".[١]

ويفهم من كلام السكاكي أنه يقصد بالالتفات : التعبير عن معنى بطريق مخالف لمقتضى الظاهر من الطرق الثلاثة – التكلم أو الخطاب أو الغيبة – سواء سبقه تعبير آخر بطريق من هذه الطرق أو لم يسبقه ، بمعنى أن كل تعبير عن واحد من الثلاثة بغيره يعد التفاتا.

(١) مفتاح العلوم ص ٩٥.

تعريف الجمهور :

هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة – التكلم أو الخطاب أو الغيبة – بعد التعبير عنه بطريق آخر منها على أن يكون المراد من الطريقين واحداً. (١)

فكل التفات عند الجمهور التفات عند السكاكى بلا عكس ؛ لأنه يريد بالنقل أن يعبر بطريق من هذه الطرق عما عبر عنه بغيره ، ولذا كان من صور الالتفات عنده قول ربيعة بن مقروم :

بانــت ســعاد فأمسى القلب معمودا   وأخلفــتك ابـنة الحـر المواعيدا

فالتفت فى قوله : أخلفتك وكان مقتضى الظاهر أن يقول : وأخلفتنى، فهذا مع أنه لم يسبقه طريق آخر غيره يعده السكاكى التفاتا ، ومن الالتفات عنده أيضاً قول الشاعر :

تذكــرت –والذكــرى تهيجك– زينبا   وأصــبح بــاقى وصلها قد تقضبا

وحــل بفلــج فالأباتــر أهلــنا   وشــطت فحلــت غمــرة فمثقــبا

فقــد عبر بتاء الخطاب فى (تذكرت) ومقتضى الظاهر أن يكون بتاء الــتكلم أى بضم التاء وهذا من الالتفات عند السكاكى لأنه لم يتقدمه طريق آخــر من الطرق الثلاثة مخالف له ، وفى البيت الثانى التفات عند كل من الجمهور والسكاكى ، فقد التفت الشاعر من الخطاب فى تذكرت إلى التكلم فى أهلنا ، ويسمى الجمهور الالتفات الأول عند السكاكى تجريداً.(٢)

(١) المطول ص ١٣٠.
(٢) ومعناه : أن ينتزع من أمر ذى صفة أمرا آخر له نفس الصفة باعتبار بلوغه الكمال فيها المطول ص ٤٣٢.

فائدة الالتفات :

يجـئ الالـتفات لمقتضيات ومناسبات تظهر بالتأمل الدقيق لمواقعه وذلك تفننا فى الحديث وتلوينا للخطاب حتى لا يمل السامع من التزام حالة واحـدة ، وتنشيطا له وحملا له على زيادة الإصغاء ، لأن نقل الكلام من أسـلوب لأسلوب يزيد من جذب انتباه السامع ، هذه فائدته العامة ولبعض مواقعـه لطائف يدركها الذوق السليم ومنها قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾(١) لم يقل : واستغفرت لهـم وعـدل عنه إلى طريق الالتفات تفخيما لشأن الرسول ﷺ وتعظيما لاستغفاره وتنبيها على عظمة شفاعة الرسول عند الله سبحانه.(٢)

كذلـك مـا نراه من فائدة الالتفات فى سورة الفاتحة : فإن العبد إذا افتـتح حمد مولاه الحقيق بالحمد عن قلب حاضر ونفس ذاكرة لما هو فيه بقوله : الحمد لله الدال على اختصاصه بالحمد ، وأنه حقيق ، به وجد من نفسه لا محالة محركا للإقبال عليه ، فإذا انتقل إلى قوله : ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، الدال على أنه مالك للعالمين لا يخرج منهم شئ عن ملكوته وربوبيته قوى ذلـك المحـرك ، ثم إذا انتقل إلى قوله : ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ الدال على أنه مـنعم بأنواع النعم جلائلها ودقائقها ، تضاعفت قوة ذلك المحرك ، ثم إذا انـتقل إلـى خاتمة هذه الصفات العظام وهى قوله : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ، الدال على أنه مالك للأمر كله يوم الجزاء تناهت قوته وأوجب الإقبال عليه وخطابـه بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة فى المهمات فقال : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٣) وهكذا.

---

(١) الكشاف ٥٣٨/١.
(٢) الكشاف ٦٤/١.
(٣) الفاتحة ٥.

صور الالتفات:

للالــتفات ست صور ، لأن كل واحد من الثلاثة – التكلم والخطاب والغيبة – ينقل إلى الآخرين ، وتجئ تلك الصور على النحو التالى :

١- الانــتقال مــن التكلم إلى الخطاب كقوله تعالى ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(١) انتقل من التكلم فى قوله : وما لى لا أعبد الــذى فطرنى إلى الخطاب فى قوله : وإليه ترجعون ، والقياس وإليه أرجع.

٢- الانــتقال مــن الــتكلم إلى الغيبة ، كقوله تعالى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾(٢) التفت من التكلم فى (يا عبادى) إلى الغيبة فى (رحمة الله) ومقتضــى الظاهر أن يقال : من رحمتى ، فعدل عن ذلك لفائدة هى طمأنة التائبين بأنهم مغفور لهم من الله ، ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾(٣) القياس فصل لنا لكنه عدل عن ذلك لما فى لفظ الرب من الحث على فعل المأمور به ، وكقوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٤) انتقل من التكلم فى قوله لنريه إلى الغيبة فى قوله: إنه هو السميع ، وكان القياس أن يقال: إننى أنا السميع.

---

(١) سورة يس ٢٢.
(٢) سورة الزمر ٥٣.
(٣) سورة الكوثر ١ ، ٢.
(٤) سورة الإسراء ١.

٣- الانتقال من الخطاب إلى التكلم ، كقوله تعالى ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾(١) التفت من الخطاب فى : استغفروا إلى التكلم فى : إن ربى ، والقياس : إن ربكم ، ومن ذلك قول علقة :

طحـــا بـــك قلب فى الحسان طروب ... بعـــيد الشـــباب عصر حان مشيب

يكلفـــنى لـــيلى وقـــد شـــط ولـــيها ... وعـــادت عـــواد بينـــنا وخطوب(٢)

التفت الشاعر من الخطاب فى (بك) إلى التكلم فى يكلفنى ، ومقتضى الظاهـــر أن يقـــول : يكلفك فعدل إلى التكلم ، وفى قوله : طحا بك التفات على مذهب السكاكى فقط ، لأن القياس عنده أن يقول : طحا بى لأن المقام للتكلم فعدل عنه إلى الخطاب.

وقد روى البيت الثانى بالتاء فى (تكلفنى) وعليه فيكون الالتفات من الخطاب فى بك إلى التكلم أيضاً ، إذ مقتضى الظاهر : تكلفنى ليلى ، فعلى روايـــة (يكلفنى) – بالياء – ليس فى البيت إلا التفات واحد عند الجمهور والســـكاكى وهـــو من الخطاب فى بك إلى التكلم فى : يكلفنى ، وكذا على رواية (تكلفنى) بالتاء إن جعل الفاعل ليلى ويكون المفعول محذوفا تقديره : شـــدائد فـــراقها ، أما إن كان الفاعل ضمير القلب فيكون فيه التفاتان عند الطرفين :

---

(١) سورة هود ٩٠.

(٢) طحـــا بـــك أى ذهب بك ، فى الحسان متعلق بقوله طروب ، بعيد الشباب أى حين ولى وكاد ينصرم ، عصر حان مشيب أى زمان قرب الشيخوخة واقبالها ، شط وليها ، أى بعد قربها.

أحدهمـــا : فـــى الكاف فى (بك) مع ياء المتكلم فى تكلفنى ، لأن مقتضى الظاهر ، يكلفك أى القلب.

ثانـــيهما : فى قلب مع فاعل تكلفنى المقدر بأنت يا قلب ، فهو من الغيبة إلـــى الخطـــاب ، وعلـــيه يكون فى البيتين ثلاث التفاتات عند السكاكى والتفاتان عند الجمهور.

٤-الانتقال من الخطاب إلى الغيبة كقوله تعالى ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾(١) القياس : إنك لا تخلف ، لكنه التفـــت مـــن الخطاب فى ربنا إنك إلى الغيبة فى : أن الله ، وذلك لأن الـــنداء مـــن قبيل الخطاب والاسم الظاهر من قبيل الغيبة ، ومنه قوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾(٢) فيه التفات على المذهبيـــن : مـــن الخطـــاب فى كنتم إلى الغيبة فى بهم ، وذلك لوجود التعبيريـــن مع مخالفة ثانيهما لمقتضى الظاهر ، لأن القياس : وجرين بكم.

٥-الانـــتقال من الغيبة إلى التكلم ، كقوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾(٣) التفت من الغيبة فى (وهو الذى) إلى التكلم فى قولنا (وأنزلنا) وفى التعبير الأول التفات علـــى مذهب السكاكى ، لأن مقتضى الظاهر عنده : وأنا الذى أرسلت الـــرياح ، لأن المقـــام للتكلم فعدل عنه إلى الغيبة ، ومن ذلك قول اله

(١) سورة آل عمران ٩.
(٢) سورة يونس ٢٢.
(٣) سورة الفرقان ٤٨.

سبحانه ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾(١) والقياس فساقه ، ففى التعبير الثانى – فسقناه – التفات على المذهبين ، وفى الأول (والله) التفات على رأى السكاكى وحده ، لأن مقتضى الظاهر عنده أن يقال : وأنا الذي أرسل ، ومن أمثلته أيضاً قوله سبحانه ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ التفت من الغيبة فى قوله (أسرى بعبده) إلى التكلم فى قوله (لنريه من آياتنا) ومقتضى الظاهر :

بارك حوله ليريه من آياته.

٦-الانتقال من الغيبة إلى الخطاب : كما فى قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾(٢) التفت من الغيبة فى قوله (مالك يوم الدين) إلى الخطاب فى قوله (إياك نعبد) والقياس إياه نعبد ، وقوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾(٣) انتقل من الغيبة فى قوله (بنى إسرائيل) إلى الخطاب فى قوله (لا تعبدون) والقياس : لا يعبدون.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾(٤) عدل عن الغيبة إلى الخطاب فى قوله (وما يدريك) والقياس أن يجئ الكلام على الغيبة فيقال : وما يدريه ، ومنه قوله تعالى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾(٥) القياس لقد جاءوا لكنه عدل عن ذلك إلى الخطاب.

(١) سورة فاطر ٩.
(٢) سورة الفاتحة ٢ ، ٣.
(٣) سورة البقرة ٨٣.
(٤) سورة عبس ١ – ٣.
(٥) سورة مريم ٨٨ – ٨٩.

أســلوب الحكيم

هــو تلقى المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبــيها له على أنه الأولى بالقصد ، أو تلقى السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤا له منزلة غيره؛ تنبيهاً له على أنه الأولى بحاله أو المهم له.

ولكل من الحالين أمثلة تخصه ، فمثال الأول (تلقى المخاطب بغير ما يترقب) قول القبعثرى للحجاج عندما توعده بالقيد فى قوله : لأحملنك على الأدهــم – يــريد القــيد الحديد – فقال له : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشــهب – يــريد الفــرس الأبيض والفرس الأسود – فأبرز وعيده فى صورة الوعد ، حملاً لكلامه على غير ما يترقب – فقال الحجاج ردا عليه: ويحك إنه لحديد ، فقال القبعثرى : لأن يكون حديداً خير من أن يكون بليدا – فحمل كلامه أيضا على غير ما يريد ليريه بألطف وجه أن من كان على مــثاله من السلطان والسعة خليق به أن يعد لا أن يتوعد ويهدد ، ولذلك أعجب الحجاج ببلاغته وحسن تخلصه فصفح عنه ومن ذلك قول البغدادى.

قلــت ثقلــت إذ أتيــت مــرارا　　　قــال ثقلــت كــاهلى بالأيــادى

قلــت طولــت قــال بــل تطولــت　　　وأبرمــت قــال حــبل ودادى

فلفظ ثقلت وقع فى كلام البغدادى بمعنى حملتك المؤنة والكلفة فحمله الآخر على معنى تثقيل عاتقه بالمنن والأيادى ، وكذلك قوله :

أبرمت وقع فى كلام البغدادى بمعنى أمللت وقوله الآخر على معنى إبرام حبل الوداد وإحكامه.

ومـــثال الـــثانى (تلقى السائل بغير ما يتطلب) قوله تعالى على أخذ الوجـــوه فـــى الآية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾(١) ســـألوا الرسول ﷺ : ما بال الهلال يبدو ضئيلا دقيقا مثل الخيط ثم يتزايد حتى يصير بدرا ثم يتناقص فيعود كما بدا؟ فكان مقتضى ظاهر الكلام أن يجـــابوا ببـــيان هذا السبب ، لكنهم أجيبوا ببيان الحكمة من هذا الاختلاف فقـــال: ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ أى أن الأهلة معالم للناس يعرفون بها مواعـــيد شـــعائرهم الدينية من حج وصيام وغيره كما ينظمون بها وسائل المعيشة من زراعة وغيرها ، وكانت تلك الإجابة تنبيها لهم على أن الأولى بالســـؤال هو هذا ، فالسؤال جاء عن السبب لكن الجواب جاء عن الحكمة والـــثمرة المترتـــبة على ذلك تنزيلا لسؤالهم عن السبب منزلة السؤال عن الحكمة.

ومنه قوله تعالى ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾(٢) فقد سألوا عن بيان جنس ما ينفقونه أو عن مقـــدار ما ينفقون؟ فلم يجابوا ببيان ذلك وإنما أجيبوا ببيان المصارف التى يذهب إليها ما ينفقونه تنبيها لهم على أن هذا هو الأولى بالسؤال عنه ، لأن الإنفاق لا تتحقق ثمرته إلا إذا وضع فى موضعه ، ولذلك نزل سؤالهم عن المنفق منزلة سؤال غيره أولى بحالهم واليق وهو السؤال عن المصرف.

(١) سورة البقرة ١٨٩.
(٢) سورة البقرة ٢١٥.

ومــن ذلــك مـا وقع من العباس عندما سئل : أأنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فقال : رسول الله أكبر مني ولكني ولدت قبله ، فقد حمل السؤال عن كبر السن محل السؤال عن كبر المنزلة.

ومــن ذلــك : إجابة المهلب بن أبى صفرة حين سأله الحجاج : أنا أطــول أم أنت؟ فقال : أنت أطول وأنا أبسط قامة ، سأله عن الطول الذى هــو ضــد القصــر ، فأجابه عن الطول بمعنى التفضل ، تنبيهاً إلى ما هو الأولى والأجدر بالسؤال.

التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى وعكسه

ومـــن صور إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى تنبيها على تحقق الوقوع وأن ما هو للواقع كالواقع، كقوله تعالى ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾(١) هذا النداء سيكون في المستقبل فكان القـــياس وينادى ، لكنه عدل عن ذلك للدلالة على تحقق الوقوع فعبر عنه بلفـــظ الماضـــى ، ومنه قوله تعالى ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾(٢) القـــياس ونحشـــرهم ، لكـــن لما أريد الدلالة ، على تحقق ذلك عبر عنه بالماضـــى ، ومنه قوله تعالى ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾(٣) عبر عنه بالماضى مع أنه سيأتى بعد ذلك ، وذلك لأنه أمر محقق الوقوع.

وقد يعكس الأمر فيعبر عن الماضى بلفظ المستقبل بقصد استحضار الصـــورة الماضـــية ، كما فى قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ القـــياس : فأثارت سحابا ، لكنه لما أريد استحضار تلك الصورة العجيـــبة عـــبر عـــنها بلفظ المضارع ، ومنه قوله تعالى ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾.(٤)

القـــياس : ما تلت ، لكن لما أريد استحضار الصورة الماضية عبر عنها بلفظ المستقبل.

---

(١) سورة الأعراف ٤٤.
(٢) سورة الكهف ٤٧.
(٣) سورة النحل ١.
(٤) سورة البقرة ١٠٢.

ويعـــبر عـــن المســـتقبل باسم الفاعل أو المفعول للدلالة على تحقق الوقوع كما هو الحال فى التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى، كقوله تعالى ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾(١) أى سيقع – لأن وقوع الجزاء أمر مستقبل – لكنه عدل إلى اسم الفاعل تنبيها على تحقق الوقوع.

ومن التعبير عن المستقبل باسم المفعول قوله تعالى ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾(٢) أى يجمع لـــه النـــاس لكنه لما كان متحقق الوقوع عبر عنه باسم المفعول.

(١) سورة المرسلات ٧.
(٢) سورة هود ١٠٣.

القلب[1]

ومن صور إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر أسلوب القلب.

وقد عرفه البلاغيون بقولهم: هو أن يجعل أحد أجزاء الكلام مكان الآخر، والآخر مكانه، وذلك لاعتبار لطيف، وهو ضربان :

الأول: أن يكون الداعي للقلب من جهة اللفظ، وذلك بأن يتوقف صحة اللفظ عليه، ويكون المعنى تابعاً له، كما إذا وقع ما هو في موقع المبتدأ نكرة، وما هو في موقع الخبر معرفة كقول الشاعر :

قفي قبل التفرق يا ضباعاً ... ولا يك موقف منك الوداعا

والشاهد في الشطر الثاني من البيت حيث إن الأصل أن يقال: ولا يك موقف الوداع موقفاً منك، إلا أن الشاعر ((لما عرف (الوداع) وهو في موضع الخبر، ونكر (موقف) وهو موضع المبتدأ، جعل من باب القلب لتصحيح مقتضى الأصل ، من تعريف الأول، وتنكير الثاني، فيكون على أن الاصل : الإخبار بالأول عن الثاني، فالتقدير -كما قلنا- ولا يكن موقف الوداع موقفاً منك، ولو كان الشاعر نكر لفظ (الوداع) لصح المعنى على ظاهره، واستغنينا عن تقدير القلب في الأسلوب؛ لأنه حينئذ يكون الأسلوب جاء على الأصل من تعريف المبتدأ، وتنكير الخبر كما هو رأى النحاة"[2].

---

(١) ينظر : المطول صـ٢٩٧-٣٠٠ ، والأطول جـ١ صـ ٤٢٧ : ٤٢٩.

(٢) ينظر : من أسرار النظم العربي جـ١ صـ٢٢٦.

الضرب الثاني : أن يكون الداعي إلى اعتبار القلب من جهة المعنى؛ لتوقف صحته، ويكون اللفظ تابعاً، وذلك نحو قولهم: عرضت الناقة على الحوض، والمعنى عرضت الحوض على الناقة، أي أظهرته عليها لتشرب، وأريتها إياه، وفي هذا القلب اعتبار لطيف هو أن المعتاد أن يؤتى بالمعروض إلى المعروض عليه، فحيث أتى بالناقة إلى الحوض جعلت كأنها معروضة، والحوض معروض عليه، ومن المعلوم أن الحوض لا رؤية له ، فقلبوا الكلام، رعاية لهذا الاعتبار ، ونزل الحوض منزله الناقة وجعل كأنه يرى.

آراء البلاغيين في أسلوب القلب :

- يرى بعضهم أن هذا الأسلوب مقبول مطلقاً؛ لأنه مما يورث الكلام ملاحة.

- وذهب آخرون إلى أنه مردود مطلقاً؛ لأنه عكس المطلوب ونقيض المقصود.

- وفريق ثالث يقول بالتفصيل :

فإن تضمن معنى لطيفاً قبل، وإلا فلا، أي أنه إذا لم يتضمن إعتباراً لطيفاً كان مردوداً؛ لأنه عدول عن الظاهر من غير نكتة تفيدها.

ومثال ما تضمن معنى لطيفاً قول رؤية بن العجاج :

ومهمه[١] مغبرة أرجاؤه[٢] كأن لون أرضه سماؤه

---

(١) المهمة : المفازة (الصحراء)

(٢) أرجاؤه : أطرافه ونواحيه جمع رجى بالقصر كرحى.

فالشــطر الــثانى مــن البيــت من باب القلب، والمعنى على حذف المضاف أى لون سمائه، والمعنى أو الأصل: كأن لون سمائه لغبرتها لون أرضه أى كلونها، والنكتة والاعتبار اللطيف فيه هو : المبالغة فى وصف لون السماء بأنه قد بلغ من الغبرة حتى صار يشبه لون الأرض فى ذلك مع أن الأرض أصل فيه أى فى الغبرة.

ومثال ما لم يتضمن اعتباراً لطيفاً قول القطامى :

فلمــا أن جــرى ســمن علــيها كمــا طينــت بــالفدن[1] السياعا[2]

فهو يصف ناقته بالسمن، ويبالغ فى ذلك إلى أن جعل اللحم المكتسب صــار أصــلاً فــى بدنها، ومعروض السمن صار فرعاً كما جعل السباع أصلاً، كما أن ناقته صارت ملساء من السمن كالقصر المطين بالسياع.

ويلاحظ أن القلب فى البيت واقع فى الشطر الثانى منه، والمعنى فيه: كما طينت بالسياع الفدن، باعتبار أن الفدن (القصر) يدهن بالسياع (الطين المخلوط بالتبن)، لا العكس.

وعلــى رأى الفــريق الثالث : أن القلب فى هذا البيت –الأخير– لا يتضــمن اعتباراً لطيفاً، وقالوا : ولقائل أن يقول: إنه يتضمن من المبالغة فــى وصــف الناقة؛ لإيهامه أن السياع وقد بلغ من العظم والكبر إلى أن

---

(١) الفدن : القصر.

(٢) السياع : الطين المخلوط بالتبن.

صار بمنزلة الأصل، والفدن بالنسبة إليه كالسياع بالنسبة إلى الفدن، وهذا مردود؛ إذ ليس القلب فيه متضمناً لاعتبار لطيف.

ولكن الأقرب إلى الصواب أن يقال : أن القلب تضمن اعتباراً لطيفاً، وهــو المبالغة فى وصف الناقة بالسمن إلا أنه جعل السياع أصلاً، والفدن تابعاً له بإدخال الباء عليه، ويلزم منه جعل السمن فى الناقة أصلاً، والناقة فرعاً عليه. والله أعلم.

أحوال المسند

المســند هــو المحكوم به على المسند إليه وله أحوال تتعلق به من الحذف والذكر والتقديم والتنكير وغيرها، وسنعرض هنا لبعض منها على النحو التالي:

حذف المسند :

الحــذف يقتضــي وجود قرينة تدل على المحذوف فإن لم توجد تلك القريـــنة يكـــون الحذف إلغازاً وتعمية ولا يصلح المصير غليه لأنه حينئذ يؤدى إلى فساد الكلام.

هذا ولحذف المسند دواع منها :

١- الاحتراز عن العبث في الظاهر لدلالة القرينة عليه ، كقول الشاعر :

ومــن يـك أمســى بالمدينة رحله فــإني وقـــيار بهـــا لغريـــب

قــيار اسم فرس الشاعرن والمراد: إنى لغريب وقيار ايضاً غريب، لكنه حذف المسند من الثانى بقصد الاختصار والاحتراز عن العبث لدلالة الأول عليه.

وهــذا البيت يمكن أن يكون الحذف فيه لنكتة أخرى غير الاختصار وهــي ضيق المقام والتحسر بسبب ما يعانيه الشاعر فى الغربة بالإضافة إلى المحافظة على وزن البيت.

ومن أمثلة الحذف للاحتراز عن العبث قول الشاعر :

نحــن بمــا عــندنا وأنــت بمــا عــندك راض والــرأى مخــتلف

(راض) خبر عن الثانى (أنت) وخبر الأول (نحن) محذوف دل عليه المذكـور تقديـره راضون- وذكره يؤدى إلى العبث فى ظاهر الأمر، ومـنه قولـه تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾(١) على وجه، بأن يكون المراد: والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك فحذف المسند من الثانى لدلالة الأول عليه، ومن ذلك قولك: زيد منطلق وعمرو أى وعمرو كذلك.

٢- ويحـذف المسند اتباعاً للاستعمال الوارد عن العرب فى تركه، كقول الشاعر:

إن محـــلا وإن مـــرتحلا وإن فـى السـفر إذ مضـوا مهلا

يقول: إن لنا فى الدنيا حلولاً وإن لنا عنها ارتحالاً إلى الآخرة، وإن الراحليـن عـن الدنيا قد توغلوا في الغيبة فلم يعودوا ونحن على أثرهم، فحذف المسند الذي هو خبر إن اتباعاً للاستعمال الوارد عن العرب، لأنهم يحذفون الخبر عند تكرار إن وتعدد اسمها، ومنه قول القائل لك : إن الناس إلب عليك فهل لك من أحد؟ فتقول: إن محمداً وإن عليا، أى إن لى محمداً وإن لى عليا.

٣- ويحـذف المسند لوقوعه فى كلام واقع جواباً لسؤال محقق أو مقدر، والمـراد بالسؤال المحقق: ما وجدت صورته فى الكلام وإن لم يوجد بـالفعل وبالمقدر: ما لم توجد له فى الكلام صورة، مثال الأول: قوله تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(٢) أى

(١) سورة التوبة الآية ٦٢.
(٢) سورة لقمان الآية ٢٥.

خلقهـــن الله، حذف المسند إلى لفظ الجلالة لوقوعه في جواب السؤال المذكـــورة صــــورته- ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ﴾(١) على بناء الفعل للمفعول ، حذف المسند إلى رجال لوقوعه في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل : من يسبحه؟ فيقال: رجال، أي يسبحه رجال.

٤- وقد يحذف المسند لتعظيمه :

ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾(٢). وتقديـــر المسند المحذوف: كمن ينعم في الجنة؟ والحذف هنا مشعر بتعظيم المحذوف، وأنه أكرم على الله من أن يذكر في مقابلة هذا الشقي، وفيه أيضاً القصد إلى أن يـــتجه الهــم كله إلى المذكور الذي يتقي بوجهه سوء العذاب ليمتلئ القلب بصورته وهو في النار فزع طائش، لا يدري كيف يدرأ العذاب عن نفسه فهـــو يتقي بوجهه. والوجه تسوؤه النار، والذي فيه نبضة من نفس وعقل يتقي وجهه من النار ولا يتقي بوجهه النار. ولكن المذكور قد طاشت نفسه وأفـــرغ لـــبه مـــن هول ما يرى فهو مختبط والله. ثم إن في ذكر الوه هنا إشـــعار بإهانـــة هـــذه الوجوه وذهاب أقدارها. فالوجه فيه معنى الشرف والـــتقدم.. وصـــورة اتقاء النار بالوجه من أبلغ ما يؤثر في النفس حين تحسن تصورها(٣).

---

(١) سورة النور ٣٦، ٣٧.
(٢) سورة التوبةالآية ٢٤.
(٣) خصائص التراكيب صـــ٢١٧،٢١٦.

٥- وقد يحذف المسند للازدراء والتحقير :

من ذلك ما جاء في قوله تعالى : ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١] بمعنى يقال فهم : هل تجزون إلا ما كنتم تعلمون، وفي ذلك توبيخ ما بعده توبيخ.

وكقوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[٢] والمسند المحذوف تقديره: كمن ليس كذلك، والقائم على كل نفس هو الله –سبحانه– أي متول أمر كل نفس حافظ شأنها حفظ القائم على الشئ يحرسه ويصونه[٣].

وكذلك قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾[٤] والتقدير: كمن أقسى قلبه، وجعل صدره ضيقاً حرجاً؟ فقد أشعر الحذف هنا بتعظيم المسند إليه –وهو من شرح الله صدره للإسلام– في مقابل حذف المسند ازدراء له حتى لا يذكر مع المسند إليه، فهو ليس جديراً بأن يذكر معه فهو ضيق الصدر قاسي القلب، وذاك منشرح الصدر وعلى نور من ربه.

---

(١) سورة النمل ٩٠.

(٢) سورة الرعد ٣٣.

(٣) خصائص التراكيب : ٢٠٦.

(٤) سورة الزمر : ٢٢.

٦- ومن دواعى حذفه المسارعة إلى المطلوب بلا تراخ :

كما جاء فى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

والتقدير : وإن استجارك أحد من المشركين استجارك فأجره، فحذف الفعـل الأول" استجارك؛ لأن المذكور يفسره، ولأن "إن" الشرطية تختص بالدخول على الأفعال، فإذا دخلت على اسم قدر الفعل بعدها، وأعرب الاسم حسب ما يقتضيه الفعل المقدر.

وغـرض الحـذف هنا المسارعة إلى المطلوب بلا تراخ، إذ لو قيل وإن اسـتجارك أحـد من المشركين فأجره، لفصل بين الاستجارة والأمر بقـبولها "فأجـره" بفاصل هو "أحد من المشركين" ، والمطلوب أن يكون الجواب عقب الإجارة بلا ريث "استجارك فأجره" فحذف الفعل الأول وهو أصل الباب، والإحالة إلى مفسره -استجارك- هو الذى حقق هذا الغرض المفهوم من نظم الآية ، وللفاء فى هذا التعبير موقع جليل، فقد وصلت بين الفعليـن، وهمـا طلب المشرك أن يجار وقبول الرسول ﷺ لهذا الجوار، وجعلتهما كأنهما فعل واحد"(٢).

وقـد يأتى الكلام على صورة الحذف ثم يحتمل أن يكون المحذوف المسـند أو المسـند إلـيه والمذكـور أحدهمـا، ومـن ذلك قوله تعالى:

---

(١) سورة التوبة الآية ٦.

(٢) مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة العدد الثامن : ١٤٣.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[١] قال العلماء : قد يكون المحـــذوف المســـند ويكون التقدير فصبر جميل أجمل، أو أمثل وقد يكون المحذوف المسند إليه ويكون التقدير: فأمري، أو فشأني صبر جميل ، وقد رجح أن يكون المحذوف المسند إليه؛ لأنه الكثير الغالب وقوعه في الكلام، ولأن الكـــلام مسوق لمدح سيدنا يعقوب –عليه السلام– فيكون الكلام دلالة مباشرة على حصول الصبر له عليه السلام، ولا يتحقق هذا الغرض على تقدير حذف المسند[٢].

وممـــا يحتمل الأمرين قوله تعالى : ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٣] فتقدير المحذوف : هذه سورة أنزلناها. أو فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها.

٦– وقد يفيد حذف المسند التأكيد والاختصاص: كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾[٤].

والتقدير: "لو تملكون تملكون: مكرر للتأكيد ، فأضمر تملكون الأولى إضـــماراً علـــى شريطة التفسير ... فأنتم فاعل الفعل المضمر، و"تملكون" المذكور تفسيره، ودليل الحذف "لو"؛ لأن "لو" لا تدخل إلا على الأفعال[٥].

---

(١) سورة يوسف : ١٨ ، ٨٣.
(٢) ينظر : المطول صـــ١٤٥.
(٣) سورة النور الآية ١.
(٤) سورة الإسراء الآية ١٠٠.
(٥) دراسات في علم المعاني د. إبراهيم التلب وآخرون : ٢٧٣.

ومـــثله قولـــه تعـــالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(١) أي خلقهن الله. وكذلك قول حاتم الطائي عندما لطمته أمه: "لـــو ذات سوار لطمتني" وهو مثل يضرب للشريف يهينه الخسيس. حذف المســـند إلى "ذات سوار" على تقدير: "لو لطمتني ذات سوار لطمتني "فـــ" ذات سوار فاعل لفعل محذوف دل عليه دخول "لو" على المسند إليه(٢).

قرينة حذف المسند:

وبعـــد هذه الجولة بين دواعي وأسرار حذف المسند، نجد العلماء قد اشـــترطوا -فيما حذف فيه المسند- وجود دليل وقرينة على هذا الحذف، حتى يكون معيناً على فهم المعنى، وإن لم تكون هناك قرينة على المحذوف كـــان هـــناك خلل في المعنى، وهذا ما تأباه البلاغة، وهذه القرينة إما أن تكون لفظية أو غير لفظية.

١- فالقريـــنة اللفظـــية هي المذكورة في الكلام. كوقوع الكلام جواباً عن سؤال محقق، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(٣)، وقولـــه تعـــالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(٤).

(١) سورة لقمان : ٢٥.
(٢) المعاني في ضوء أساليب القرآن د/ عبد الفتاح لاشين : ١٥٤.
(٣) سورة العنكبوت : ٦٣.
(٤) سورة لقمان : ٢٥.

وتقديـــر المســـند في الآية الأولى : نزّله وأحيا به الأرض الله، وفي الثانية خلقهن الله"[١].

٢- وغـــير اللفظـــية: وهـــي التي ليست مذكورة في الكلام، وذلك كوقوع الكـــلام جوابـــاً عـــن سؤال مقدار كقوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ ﴾[٢] على بناء الفعل للمفعول حذف المسند إلى رجال لوقوعـــه في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: من يسبحه؟ فقال: رجال، ذلك على نحو ما مر في دواعي حذف المسند.

ومن ذلك قول الشاعر ضرار بن نهشل يرثي أخاه يزيد بني نهشل:

لِيـــبكَ يـــزيد ضـــارع لخصـــومه . ومختـــبط مما تطيح الطوائح[٣][٤]

ليـــبك : بالبناء للمجهول، و "يزيد" نائب فاعل، وكأن سائلاً سأل من يبكيه؟ فقال : ضارع، فترك المسند، وتقديره: يبكيه ضارع أي ذليل.

ذكر المسند :

حيـــنما تقـــول ابتداء "الجو معتدل" فتذكر المسند الذي هو "معتدل" ؛ وذلـــك لأنـــه ليس في الكلام ما يدعو إلى حذفه ، لذا قال البلاغيون : إن المســـند يذكـــر فـــي الكلام لكونه ذكره هو الأصل ، وليس في الكلام ما

---

(١) من بلاغة النظم العربي د/ عبد المعطي عرفة : ٢٤١.

(٢) سورة النور ٣٦،٣٧.

(٣) المختبط : الذي يأتي إليك للمعروف من غير وسيلة.

(٤) والطوائح : جمع مطحية : الشدائد ، أي يبكي لأجل ذهاب المنايا يزيد.

يقتضي العدول عنه ، وهناك مقامات أخرى تخرج عن هذا الأصل حسب مقتضيات الكلام ومقاماته.

١- فقد يذكر المسند للاحتياط لضعف التعويل على القرينة ، كقولك : "عنترة أشجع وحاتم أجود" في جواب من سألك : من أشجع العرب في الجاهلية وأكرمهم"؟ فتذكر أشجع وأجود ؛ خشية أن يلتبس على السامع إذا قلت : عنترة وحاتم من غير أن تعين صفة كل واحد منهم فلا يدرى أيهم الأشجع والأجود.[1]

ومن هذا القبيل قولك : "عقل في السماء وحظ مع الجوزاء" فلو حذفت قولك "مع الجوزاء" ما دل عليه المذكور دلالة قاطعة ، إذ يحتمل أن يكون الحظ عاثراً كما هو شأن الكثيرين من ذوي الآراء والعقول.

وقد يذكر تعريضاً بغباوة السامع كما جاء في قوله تعالى ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾[2] وذلك في جواب قولهم:﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾[3] فلو قال : بل هذا ، لكان المسند مفهوما لدلالة السؤال الصريح عليه ، إلا أنه – عليه السلام – عدل عن الحذف ؛ لأن في الحذف تعويلا على ذكاء المخاطب وتنويها بفهمه.

---

(١) ينظر خصائص التراكيب ٢٧٧.
(٢) سورة الأنبياء ٦٣.
(٣) سورة الأنبياء ٦٢.

ومثل ذلك قولك : "سيدنا محمد نبينا" فى جواب من سأل : من نبيكم؟ فكـان مـن الممكـن ترك لفظ "نبينا" لدلالة القرينة عليه ، ولكنك ذكرته للتعريض بغباوة السامع ، وأنه لا يعلم الأمور البديهية.

٢-وقد يذكر للاستلذاذ بذكره مثل قوله : "هى سعاد" فى جواب سؤال ، هل هذه سعاد؟ وكان من الممكن حذف المسند إليه لوجود القرينة الدالة عليه وهـى ذكـره فى السؤال ، ولكنه ذكر للاستلذاذ بذكره ، وهذا يكثر فى شعر النسيب والغزل ، تعبيرا عن الحالة النفسية لمن يكتم هواه ، فيعبر عن ذلك بمجرد ذكر الذى يهوى.[1]

٣-وقـد يذكر المسند لزيادة تقرير الكلام وتثبيت معناه وتوضيحه فى نفس السـامع والقـارئ حين يتعلق الغرض بهذا ، ومثال هذا قوله تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[2] فـإن المسند لو حذف لدل عليه السؤال ، وقد جاء كذلك فى آيـات أخـرى ، إلا أن المقصـد مـن ذكره هنا زيادة تقرير خلق الله للسموات والأرض.[3]

ومـثله قوله تعالى ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[4] فقد

(١) من بلاغة النظم العربى ٢٤٥ ، ٢٤٦.
(٢) سورة الزخرف ٩.
(٣) خصائص التراكيب ٢٢٨.
(٤) سورة يس ٧٨ ، ٧٩.

ذكــر المسند في قوله ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا﴾ وفي السؤال ما يدل عليه كما ترى.

٤-وقــد يذكر ليتعين كونه فعلاً ، فيفيد التجدد والحدوث مثل "محمد يصلى" ويجمــع ذلـك قولــه تعالى ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾(١) فالجملة الأولى (يخادعون الله) جاء المسند فيها (يخادعون) فعلا دالاً على التجدد والحــدوث ، فخداعهم غير متوقف ، والجملة الثانية وهو خادعهم "جاء المســند فــيها اســما وهو "خادعهم" مفيدا ثبوت ، أي ثبوت خداع الله هؤلاء.

دواعي تنكير المسند :

يؤتى بالمسند منكرا للأغراض الآتية :

١- أن يراد عدم الحصر والعهد المفهومين من تعريفه ، يعني عدم حصر المســند فــي المسند إليه أو عدم العهد والتعيين في المسند بأن يكون الغــرض مجرد الإخبار بثبوت المسند للمسند إليه كقولك : زيد كاتب ومحمــد شاعر وعلي فاهم ، وقولهم : القناعة كنز لا يفنى ، لما كان الغــرض فــي الأمثلة المذكورة مجرد الأخبار دون النظر إلى اعتبار آخر جاء المسند منكرا.

٢- القصــد إلــى تفخــيم شأن المسند وارتفاع قدره ، كقوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾(٢) نكر "هدى" لبيان أن القرآن لا

---

(١) سورة النساء ١٤٢.

(٢) سورة البقرة ٢.

يكتـــنه كنهه ولا يمكن وصفه ، وذلك بناء على أن هدى للمتقين خبر ذلك الكتاب أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف.

٣- القصـــد إلى تحقير المسند والتهوين من شأنه ، كقولك : ما زيد شيئا ، وكمـــا تقـــول لإنســـان يفتخر بنفسه : أنت نطفة ، فالتنكير فى نطفة مقصـــود بـــه التهوين لكى يتبين المفتخر أن أصله حقير فيرتدع عن الافتخار ويتواضع ، وكذلك : نصيبى من المال بدرة ، أو من الشراب قطـــرة ، أى شـــئ تافه لا قيمة له ، ومن ذلك قـــول قيس بن جروة يخاطب عمرو بن هند الملك :

غـدرت بعهـد كنـت أنـت دعوتنا ... إلـيه وبـئس الشيمة الغدر بالعهد

وقـد يـترك الغـدر الغنى وطعامه ... إذا هـو أمسى حلبة من دم الفصد

يـــندد هـــذا الشاعر بالملك لأنه غدر بالعهد ويذكر أن الرجل الفقير المعـــدم لا يرضـــى ينقض العهد ويترفع عن ذلك فكيف بملك؟ لذلك كان تنكير المسند (حلبة) لبيان أن طعام هذا الرجل قليل ضئيل لا يتجاوز مقدار حلبة من دم عرق مفصود ، وفيه كناية عن رقة الحال.

٤-وينكر المسند لكون المسند إليه نكرة نحو : رجل من قبيلة كذا حاضرة، وجـــب تنكير المسند هنا لأن كون المسند إليه نكرة والمسند معرفة غير موجودة فى كلام العرب.

تعريف المسند :

حيـــنما يعـــرف البلـــيغ المسند فإن ذلك يكون لدواع وأسرار بلاغية كثيرة، فمثلا من أغراض تعريفه باللام :

١-**إرادة العهد** : وذلك إذا كان المسند معلوماً ومعهوداً للمخاطب ، ويتجلى لـــك ذلك عندما تعرف الفرق بين قولك : "زيد منطلق" ، وقولك : "زيد المـــنطلق" وأنك فى "زيد منطلق" أثبت لزيد انطلاقا لم يكن معلوما لدى المخاطـــب ولـــم يكن يعرف عنه شيئا ، أى مجرد الإخبار فقط ؛ لأنه خـــالى الذهن، وفى "زيد المنطلق" أثبت الانطلاق المعهود الذى يعرف المخاطـــب وقوعه ، ولم يكن يعرف ممن وقع ، أثبته لزيد على القطع، بعـــد أن كـــان يحملـــه على زيد ، أو عمرو ، أو على .. إلخ ، ونفيت اشتراك أحد مع زيد فيه.

ولهذا يصح فى الأولى : "زيد منطلق وعمرو" ؛ لأن الانطلاق غير معهود ، فيجوز أن تشرك فيه عمراً أو زيداً ولا يصح فى الثانية أن تقول: "زيد المنطلق وعمرو" ؛ لأن الانطلاق المعلوم أثبت لزيد على سبيل القطع والاختصـــاص فـــلا يصح اشتراك عمرو فيه ؛ لأن العهد قصر الانطلاق على زيد، فلا تصح فيه الشركة بعد ذلك.[١]

٢-إفـــادة القصر الادعائى على سبيل المبالغة فى إثبات المعنى ، ويقع هذا الغرض فى مقامات الفخر والمدح والرثاء ، ونحوها غالبا ، كما يقول :

---

(١) يـنظر دلائـل الإعجـاز للإمام عبد القاهر الجرجانى : ١٨٦ تحقيق أ/ محمود شاكر. وخصائص التراكيب ٢٣٩ ، ٢٤٠ ودراسات فى علم المعانى ٢٩٥.

حـــاتم الجـــواد ، وعلـــي الشجاع ، والمعنى : أن حاتما هو الكامل فى الجود، وعليا هو الكامل فى الشجاعة ، وكأن شجاعة وجود غيرهما لا يعتد بهما لقصورهما عن درجة الكمال الموجود فى جود حاتم وشجاعة على.

٣-وقـــد يفيد قصر المسند على المسند إليه قصراً حقيقيا ، وذلك كقولك : "محمد العالم" إذا لم يكن هنك فى الحقيقة عالم سواه.

٤-وقـــد يفيد القصر الإضافى كما جاء فى قوله سبحانه ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾.(١)

أى أنت الأعلى ، لا هم ، فقد أفاد تعريف المسند باللام – الأعلى – قصره على المسند إليه – إنك –، أى أن العلو لا يتعداه إلى السحرة.

ويعرف المسند باسم الموصول فتكون له أسراره البلاغية :

فحينما يعمد البليغ إلى تعريف المسند باسم الموصول فهو بذلك يبغى معنى الكمال فى الصفة ، وهو ما تفيده كلمة "الذى" فى كثير من مواقعها ، ومن ذلك قول الشاعر :

أخـــوك الـــذى إن تدعـــه لملمـــة . يجبك وإن تغضب إلى السيف يغضب

فقـــد عبر باسم الموصول عن صفة عالية تتمثل فى الأخ ، وفى هذا يقـــول شيخ البلاغيين الإمام عبد القاهر الجرجانى : "فهذا ونحوه على أنك قـــدرت إنساناً هذه صفته ، وهذا شأنه ، فأعلمته أن المستحق لاسم الإخوة

(١) سورة طه ٦٧ ، ٦٨.

هو ذلك الذى عرفه ، حتى كأنك قلت "أخوك زيد الذى عرفت أنك إن تدعه لملمة يجبك".(١)

كمـا يفـيد تعـريف المسند باسم الموصول – مع إفادة قصره على المسـند إلـيه – لطائف ودقائق أخرى ، هى اشتهار جملة الصلة ، وأنها أصـبحت أمـراً معـروفاً بيـن الـناس ، وأنها مما يجب انشغال الناس بمضمونها، كقول المتنبي(٢) :

أنـا الـذى نظـر الأعمى إلى أدبى وأسـمعت كلمـاتى مـن به صمم

وهذا النوع كثير فى القرآن الكريم ، فمنه قول الحق سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ... وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.(٣)

دواعى تقديم المسند :

يقدم المسند فى الذكر لأغراض بلاغية تقتضى ذلك ومنها :

١- تخصـيص المسند بالمسند إليه ، بمعنى جعل المسند إليه مقصوراً على المسـند كقولـك : أزهرى أنا ، قدم المسند (أزهرى) لبيان أن المتكلم مقصـور علـى كونـه أزهريا فلا يتعدى ذلك إلى كونه من خريجى الجامعات الأخرى مثلا ، ومثله قولك : قائم زيد ، قدم المسند لإفادة أن

(١) دلائل الإعجاز ١٨٥.
(٢) فى ديوانه : ٣٦٧/٣ – ط الحلبى بشرح العكبرى.
(٣) سورة المؤمنون ٧٨ – ٨٠.

زيــدا مقصـــور علــى القيام لا يتجاوزه إلى القعود ، ومنه قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[1] قدم المسند (لله) لإفادة التخصيص ، بمعنى أن ملك السموات والأرض وصف خاص به سبحانه وتعالى دون غــيره ، وقولــه تعــالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[2] قدم المسند في الموضـــعين لإفــادة قصر دينهم على كونه لهم لا يتجاوزهم إليه عليه الصــلاة والســلام وقصر دينه عليه لا يتجاوزه إليهم ، ومنه قول أبي تمام:

لـــك القلـــم الـــذي بشـــباته يصـــاب من الأمر الكلى والمفاصل

يقــول لممدوحــه : إن لقلمك شأنا عظيما فهو إذا حدث أصاب من الأمــور أفضـــلها وجرت على أسلته كبريات الأحداث ، قدم المسند (لك) للتخصيص ، يعني أن القلم الموصوف بذلك خاص بالممدوح لا يتعداه إلى غيره ، فكأنه قال : إن القلم المذكور لك لا لغيرك.

٢-التنبيه من أول الأمر على أن المسند خبر لا صفة ، لأن النعت لا يتقدم على المنعوت كقول الشاعر :

لـــه همـــم لا منـــتهى لكـــبارها وهمـــته الصـــغرى أجل من الدهر

قدم المسند (له) لأنه لو أخر عن المبتدأ (همم) لتوهم السامع أن الجار والمجرور صفة وأن المبتدأ سيأتي بعد ذلك ، لأن النكرة تحتاج إلى النعت

---

(١) سورة آل عمران ١٨٩.

(٢) سورة الكافرون ٦.

أكثر من احتياجها إلى الخبر ، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾(١) قــدم المسند فى الآية (لكم) لئلا يتوهم من تأخيره أنه صفة.

٣-الـتفاؤل ، لـيقع ما يسر المخاطب فى بداية الكلام كقولك لزميلك فى الامتحان: موفق أنت ، وقولك لمريض تزوره : فى عافية أنت ، ومنه قول الشاعر :

سـعدت بغـرة وجهـك الأيـام وتزينـت بـبقائك الأعـوام

قــدم المسـند فى الأمثلة المذكورة بقصد التفاؤل ليسمع المخاطب ما يسره فى أول الكلام.

٤-التشويق إلى ذكر المسند إليه بأن يكون فى المسند ما يشوق نفس السامع إلى ذكر المسند إليه فيقع فى قلب السامع موقعاً حسنا ، كقول محمد بن وهب يمدح المعتصم :

ثلاثـة تشـرق الدنـيا ببهجـتها شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

وذلـك على تقدير أن (ثلاثة) خبر مقدم ، فقدم المسند لكونه مشتملا على وصف مشوق لذكر المسند إليه ليتمكن ما يلقى إلى المخاطب بعد ذلك فى النفس فضل تمكن ، ومنه قول أبى العلاء :

وكالـنار الحـياة فمـن رمـاد أواخـرها وأولهـا دخـان

(١) سورة البقرة ٣٦.

يشـــبه الحياة بالنار ، فالنار تبدأ دخانا ثم تقوى لتكون لهيبا ثم تتحول إلى رماد ، وكذلك الإنسان يولد ضعيفاً ثم يصبح شابا قويا ثم يصيبه الهرم فـيعود ضـــعيفا كما بدأ ، قدم المسند (كالنار) لأن فى ذكره أول الكلام ما يثير فى النفس التشوق لذكر ما بعده فيتمكن فى النفس خير تمكن ، ومنه : منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال ، وذلك إذا قدر أن (منهومان) خبر مقدم.

٥-الاهــتمام بأمر المقدم كقوله تعالى: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾(١)

ومنه قوله :

غـــافل أنـــت واللـــيالى حـــبالى بصـــنوف الـــردى تـــروح وتغدو

---

(١) سورة مريم ٤٦.

أحوال متعلقات الفعل

متعلَّقات الفعل – بكسر اللام على الأرجح – هي كل ما يتصل ويتعلق به، والفعل يتعلق به الفاعل، والمفعول به، والجار والمجرور، والظرف والحال، والتمييز ، والمفعول لأجله، والمفعول معه .. إلخ.

وحال الفعل مع المفعول ، كحاله مع الفاعل ، فإسناده للفاعل لبيان وقوعه منه ، وتعديته للمفعول لبيان وقوعه عليه ، فالفاعل والمفعول يجتمعان في أن عمل الفعل فيهما إنما كان ليعلم التباسه بهما ، فرفعه للفاعل ليعلم التباسه به من جهة وقوعه منه ، ونصبه للمفعول ليعلم التباسه به من جهة وقوعه عليه.

هذا ، والمراد بأحوال متعلقات الفعل ما يعرض لها من أمور ، كتقييد الفعل ، وحذف المفعول ، وتقديمه على الفعل ، وتقديم المعمولات بعضها على بعض ، ومن هنا يمكن القول بأن أحوال متعلقات الفعل تشمل :

١- أغراض تقييد الفعل.

٢- حذف المفعول.

٣- التقديم في المتعلقات.

أ-أغراض تقييد الفعل :

يقيد الفعل بالمفعولات ونحوها : كالشرط والحال والتمييز – لغرض هو زيادة الفائدة ؛ وذلك لأن الحكم كلما ازداد تقييدا ازداد فائدة.

ويتضح ذلك حينما تلاحظ الفرق بين قولنا مثلا : فلان حفظ ، وقولنا فلان حفظ القرآن الكريم سنة كذا فى بلد كذا.

هذا والقيد فى نحو "كان زيد مجداً" ـ هو "مجدا" لأنه المسند ، والقيد هو "كان" الدال على زمان النسبة.

هـــذا وقـــد قال البلاغيون : إن تقييد الفعل بشئ من هذه القيود إنما يكـــون لتربية الفائدة وإحداث زيادتها معه ، وهذا يعنى أنه يترك تقييده إذا منع من زيادة الفائدة مانع ومن ذلك :

١- خوف انقضاء الفرصة ، كما فى نحو قولك للصياد : الصيد محبوس ، أو حـــبس ، دون أن تقول له : محبوس في الشرك مثلاً وذلك لينتهز الفرصة فيدرك الصيد قبل فواته بالفرار ، أو بالموت حتف أنفه.

٢- إرادة ألا يطلـــع الحاضرون على زمان الفعل أو مكانه أو مفعوله كأن يقول قائل مثلا : سأسافر – وهو يقصد – سأسافر اليوم ، أو سأسافر غـــداً صباحاً، ولكنه لا يذكر ذلك لئلا يعلم الحاضرون زمان الفعل ، فيصيبه منهم بسبب ذلك مكروه.

٣- عدم العلم بالقيد ، كأن تقول مثلا : قابلت – دون أن تذكر مفعولاً لعدم علمـــك بمـــن قابلـــته ، إلى غير ذلك من الموانع كالرغبة فى مجرد الاختصار لضيق صدر المتكلم ، أو السامع ، وكالاحتراز عن العبث ، وذلك إذا دل على القيد دليل يغنى عن ذكره.[١]

---

(١) علم المعانى : ١١٨ ، ١١٩.

تقييد الفعل بالشرط:

أدوات الشرط جمة وكثيرة ، وللبليغ فيها تأنقات وتصرفات من خلال نظمـــه الكـــلام بواسطتها ، لذا تراه – أى البليغ – يستعمل منها ما يوافق غرضه فى أداء معانيه ، فهو يعتبر فى كل مقام ما يلائمه.

ولـــم يفصل البلاغيون الكلام فى أدوات الشرط ، اعتماداً على جهود النحويــين فـــى ذلـــك ، بحيـــث فصلها علم النحو أتم تفصيل ، وقد درج البلاغيون على ذكر ثلاث أدوات منها فحسب هى : "إذا ، وإن ، ولو".

فمعلوم أن "إن وإذا" للشرط فى الاستقبال ؛ أى تفيد أن تعلق حصول الجزاء بحصول الشرط فى المستقبل.

والمعـــنى الأصلى "لإن" الذى تستعمل فيه على سبيل الحقيقة اللغوية هو : عدم جزم المتكلم بوقوع الشرط فى الاستقبال.

والمـــراد بعدم الجزم بوقوع الشرط فى الاستقبال : الشك فى وقوعه فـــى المســـتقبل ، وتوهـــم وقوعه فيه ، كما تقول لصاحبك : "إن تكرمنى أكـــرمك" وأنت لا تقطع بأنه يكرمك ، ولذلك كان الحكم النادر موقعاً "لإن" لكونـــه غير مقطوع به فى الغالب ، ومعنى فى الغالب "أن النادر قد يقطع بوقوعـــه كـــيوم القيامة فإنه نادر ، ومع ذلك مقطوع به ، وإنما كان يوم القيامة نادراً ؛ لأنه لا يحصل إلا مرة ولا تكرار لوقوعه.

وأما قولهم : "إن مات فلان فافعل كذا" فقد دخلت "إن" على أمر مجزوم الوقوع ، أجاب الزمخشري[1] عليه بقوله : بأن وقت الموت لما كان غير معلوم استحسن دخول "إن" عليه.[2]

ومعلوم كذلك أن "لو" للشرط في الماضي ، وكون "مهما ، ومتى" لعموم الزمان و "أين" لعموم المكان ، و "من" لعموم من يعقل ، و "ما" لعموم غير العاقل ، و "كلما" للتكرار .. إلى آخر ما استوفى علم النحو بيانه والاعتبار في كل مقام بما يناسبه من معاني تلك الأدوات ، فمثلا إذا كان المخاطب يعتقد أنه إن كرر التَّجيء إليكم مللت منه واستثقلته فتقول نفيا لذلك كلما جئتني ازددت فيك حباً ، أما إذا كان يعتقد أن الجائي في وقت كذا لا يصادف طعما عند زيد مثلا ، تقول نفيا لذلك متى جئت زيدا وجدت عنده طعاما ، أو كان يعتقد أنك لا تجالسه إلا بالمسجد مثلا قلت: أينما تجلس أجلس معك، أو كان يعتقد أنك لا تكرم إلا من كان من بني فلان فتقول له نفياً لذلك:من جاءني أكرمته، وعلى هذا فقس.[3]

وبهذا يعلم أن تقييد المسند بالشرط لا يجري دون مراعاة للمعاني ومتطلبات الأحوال ، بل كل أداة في مقامها المتطلب لها ، عند البليغ.

---

(١) الزمخشري صاحب تفسير الكشاف.

(٢) من بلاغة النظم العربي ٢٥٧.

(٣) ينظر حاشية الدسوقي ٣٥/٢ ، ٣٩.

ولما كان لإن ، وإذا ، ولو – بوجه خاص – أحكام دقيقة لم يستوف علم النحو الكلام فيها ، كان لا بد من وقوف البلاغيين عند الأدوات لتفصيل الكلام فيها لتوضيح ما بينها من فروق على النحو الآتي :

١-إن ، وإذا للشرط في الاستقبال ، ولكن الأصل في "إن" الدلالة على عدم جزم المتكلم بوقوع الشرط ، ومن أجل ذلك استعملت غالباً في الحكم النادر ؛ لكونه غير مقطوع به ، وغلب دخولها على لفظ المضارع. أما الأصل في "إذا" فهو الدلالة على جزم المتكلم بوقوع الشرط ، أو على ترجيحه لوقوعه ، ومن أجل ذلك استعملت في الحكم الكثير الوقوع وغلب دخولها علي لفظ الماضي لدلالته على تحقيق الوقوع.

وقد اجتمعت "إن وإذا" في قوله تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾.(١)

حيث أتى في جانب الحسنة والخير والعطاء بلفظ "إذا" إشعاراً بأن ذلك مقطوع به وكثير الوقوع عليهم، وأتى في جانب السيئة والبلاء والنقم بلفظ "إن" إشعاراً بندرة ذلك وقلة وقوعه بالنسبة إلى الحسنة، ولا غرو فخير الله ورزقه لا ينقطع ليل نهار، أما بلاؤه ونقمه فهي إلى جانب ذلك قليل وقوعها. قلما يدوم إن وقعت فهي ملفوفة بالألطاف والعون(٢) هذا ويتعين عدم الجهل بمواقع هاتين الأداتين، إذ الجهل بذلك يبعد عن

---

(١) سورة الأعراف ١٣١.

(٢) دراسات وتطبيقات في علم المعاني : ١٧٩.

الصـــواب، من هنا قال الزمخشري: وللجهل بموقع "إن" و "إذا" يزيغ عن الصواب ألا ترى إلى عبد الرحمن ابن حسان كيف أخطأ بهما الموقع، في قوله يخاطب بعض الولاة، وقد سأله حاجـــة فلـــم يقضها ثم شـــفع له فيها فقضاها:

ذممـــت ولـــم تحمد وأدركت حاجتي   تولـــى سواكم أجرها واصطناعها

أبـــى لـــك كسب الحمد رأي مقصر   ونفـــس أضـــاف الله بالخير باعها

إذا هـــي حثـــته علـــى الخـــير مرة   عصـــاها وإن همـــت بشر أطاعها

فالأبـــيات فـــي ذم بعض الولاة، وهذا يقتضي المبالغة في سلب كل الصفات الحميدة من قريب أو بعيد، ولكن الشاعر أدخل "إذا" التي تستعمل لمـــا هـــو كائن محقق على جملة: "إذا هي حثته على الخير مرة عصاها"، فأشعر المتلقي أن حث نفس الوالي بالخير أمر محقق وكائن، وهذا يضعف مـــن قوة الهجاء والذم، وكذلك أدخل إن التي تستعمل فيما يترجح بين أن يكـــون وألا يكون على جملة "وإن همت بشر أطاعها" فأفاد أن عزم نفسه علـــى الشـــر مشكوك فيه، ويترجح بين أن يكون وألا يكون وواضح أنه يضـــعف الهجـــاء الـــذي ينـــبغي أن يقوم -فنياً- على المبالغة، ولذا قال الزمخشري معلقاً على الأبيات "ولو عكس لأصاب"(١).

ومما ذكرت فيه "إذا" قول المتنبي :

إذا أنـــت أكرمـــت الكـــريم ملكـــته   وإن أنـــت أكرمـــت اللئـــيم تمردا

---

(١) بغية الإيضاح : ١٧٦/١.

وقد علق صاحب خصائص التراكيب على البيت بقوله: "وقد أصاب حين ذكر "إذا" فى سياق إكرام الكريم؛ لأن هذا مما ينبغى أن يوجد دائماً، وذكـــر "إن" فـــى سياق إكرام اللئيم للإشارة إلى أن مثله من القليل النادر؛ وذلك لصعوبة بحثهم النفس إكرام اللئيم[1].

هذا وقد يستعمل البليغ إن "مكان" "إذا" لأغراض بلاغية منها :

١- التجاهل إذا اقتضاه المقام كما إذا سئل العبد عن سيده هل هو فى الدار وهـــو يعلـــم أنه فيها فيقول : إن كان فيها أخبرك، فتجاهل خوفاً من سيده، وقس على هذا.

٢- إجـــراء الكـــلام على حسب حال المخاطب كأن يكون شاكاً فى وقوع الشـــرط غـــير جازم بوقوعه، والمتكلم جازم بوقوعه، فيجرى الكلام علـــى حسب المخاطب كقولك لمن يشك فى صدقك: إن صدقت فماذا تفعـــل؟ فأنت جازم بصدقك ولكنك استعملت "إن" التى للشك تمشياً مع حال المخاطب الذى يشك فى صدقك، وكان الأصل استعمال "إذا" فيما سبق بدلاً من "إن".

٣- تنزيل المخاطب العالم بوقوع الشرط منزلة الجاهل؛ لأنه لم يجر على مقتضى ما يعلمه، كقولك لمن يؤدى أباه: إن كان أباك فلا تؤذه.

---

(١) خصائص التراكيب ٢٦١.

ب- دواعي حذف المفعول به :

١- قد يكون القصد إلى مجرد إسناد الفعل إلى الفاعل من غير اعتبار تعلقه بمفعول فينزل الفعل حينئذ منزلة اللازم كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾(١) فقد حذف المفعول لأن القصد إلى مجرد إثبات الفعل للفاعل من غير أن يتعلق بالمفعول غرض أي خلق قوتي الضحك والبكاء، فالمقصود ذات الفعل، ومن ذلك :فلان يحل ويعقد، ويضر وينفع، ويعطي يمنع، لم يتعرض لذكر المفعول مع هذه الأفعال لأن الغرض مجرد إثبات الفعل للفاعل، بمعنى أنه يحصل منه حل وعقد وضر، ومنه قول البحتري يمدح المعتز بالله ويعرض بالمستعين.

شجو حساده وغيظ عداه أن يرى مبصر ويسمع واع

أي أن رؤية الناس لآثاره العظيمة وسماعهم لأخباره هما مصدر الحزن لحساده ومبعث الغيظ لأعدائه، ولذلك يتمنوا أن تختفي هذه الآثار حتى لا يشعر بفضله أحد ، وقد حذف المفعول في كل من يرى ويسمع ، لأن المقصود مجرد إثبات الرؤية والسماع للفاعل من غير نظر إلى تعلقهما بالمفعول ، وذلك لبيان أن محاسن الممدوح قد بلغت من الوضوح والشهرة حدا لا تخفى عنده على من له بصر أو سمع ، فيعلم أنه لا يليق لتولي الخلافة سواه ، فلا يجد أعداؤه لمنازعته سبيلا ، وذكر المفعول أو تقديره هنا يفسد المعنى الذي يقصد إليه الشاعر.

---

(١) سورة النجم الآيتان : ٤٣ ، ٤٤.

٢-وإذا كان الغرض إفادة تعلق الفاعل بمفعول وجب تقديره بحسب القرائن ويكـــون حذفـــه عـــندئذ من اللفظ لدواع يتعلق بها غرض المتكلم ومن أبرزها :

أ-البـــيان بعد الإبهام كما فى فعلى المشيئة والإرادة إذا لم يكن فى تعلقهما بالمفعول غرابة كقولك : لو شئت جئت أو لم أجئ ، أى لو شئت المجئ أو عـــدم المجـــئ ، ومـــن ذلك قوله تعالى ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(١) أى مـــن الإيمان ومن شاء الكفر ، وقوله ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٢) أى لو شاء هدايتكم ، وقوله ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾(٣) أى من يشأ إضلاله ، حذف مفعول فعل المشيئة فى كل ما تقدم للقصد إلى البيان بعـــد الإبهام ، لأن فى ذكر فعل المشيئة إعلاما للسامع أن هناك شيئاً قد علقـــت المشيئة عليه لكنه مبهم عنده فإذا جئ بجواب الشرط صار هذا المـــبهم مبينا واضحا عنده ، وهذا أوقع فى نفس السامع ، وإذا كان تعلق فعـــل المشـــيئة بـــالمفعول غرابة تعين ذكر المفعول ليتقرر ذلك الشئ الغريب فى نفس السامع فيأنس به كقول الشاعر يرثى ابنه :

ولـــو شـــئت أن أبكـــى دمـــا لبكيته عليـــه ولكـــن ساحة الصبر أوسع

وقـــع قولـــه : أن أبكـــى دما مفعولا للمشيئة ، ولما كان بكاء الدم مســـتغربا صرح بالمفعول ليتقرر ذلك فى ذهن السامع ، ومنه قوله تعالى

(١) سورة الكهف ٢٩.
(٢) سورة النحل ٩.
(٣) سورة الأنعام ٣٩.

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾(١) المفعول فى الآيـــة : أن يـــتخذ ولدا وقد ذكره لأنه من الغرابة بمكان أن يتخذ الله ولدا وهو رب العالمين ، ومنه قولك : لو شئت أن أقابل الرئيس كل يوم لقابلته.

ب-دفع توهم السامع فى أول الأمر إرادة شئ غير المراد من الكلام كقول البحترى :

وكــم ذدت عــنى من تحامل حادث وســورة أيــام حــززن إلى العظم

ذدت : دفعــت ، الــتحامل : عــدم العــدل ، سورة الأيام : شدتها وصــولتها ، حــذف المفعول وهو اللحم لأنه لو ذكر فقيل : حززن اللحم لربما توهم – قبل ذكر ما بعد اللحم من الكلام وهو قوله : إلى العظم.

إن الحز لم ينته إلى العظم بل كان فى بعض اللحم ، ولذا ترك ذكر اللحــم ليــبعد عن السامع هذا التوهم، ويصور فى نفسه من أول الأمر أن الحز تجاوز اللحم ولم يرده إلى العظم ، وبذلك يتحقق غرض الشاعر من بيان إحسان الممدوح إليه لكونه دفع عنه من الشدائد ما لا يطاق تحمله.

ومــنه قولك : طالعت حتى آخر صفحة ، تريد طالعت الكتاب لكنك حذفــت المفعــول لأن فــى ذكره قبل ذكر ما بعده توهم أنك لم تستوعب الكتاب مطالعة وهو غير مراد.

جــــ- أن يكــون الغــرض من الحذف التعميم فى المفعول المحذوف مع الأختصار كقولك : قد كان منك ما يؤلم، أى كل أحد ، حذف المفعول

---

(١) سورة الزمر ٤.

لإفادة العموم فيمن وقع عليه الألم وأن إيذاءه لغيره بلغ أمرا لا يختص بـــه واحـــدا دون آخر ، وعلى ذلك قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾(١) أى يدعـــو العباد كلهم ، لأن الدعوة إلى الجنة تعم جميع الناس لكن الهداية الموصلة إليها تختص من يشاء.

د–استهجان التصريح بالمفعول ، كما روى عن عائشة – رضى الله عنها – (مـــا رأيـــت مـــنه ولا رأى منى) أى العورة ، لما كان لفظ العورة مستقبح الذكر حذف من الكلام.

هـــ–ويحذف المفعول لرعاية الفاصلة فى النثر أو لرعاية الوزن فى النظم، ومـــن ذلـــك قولـــه تعالى ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾(٢) أى ما قلاك ، لكنه حذف المفعول لأن فواصل الآى جاءت علـــى الألـــف ، ويمكـــن أن يكون الحذف فى الآية للاختصار اللفظى لظهـــور المحـــذوف ومثله قولـــه تعالى ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾(٣) يـــريد والذاكـــراته ، وكذا قوله ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾(٤) أى آواك وهداك ، وأغناك، حذف المفعول من الآيات للاختصار اللفظى ، أو لرعاية الفاصلة ، ومن ذلـــك قوله ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾(٥) يريد : من يخشى الله فحذف المفعول رعاية للفاصلة – ومن الحذف لرعاية الوزن قول الشاعر :

(١) سورة يونس ٢٥.
(٢) سورة الفاتحة ١ – ٣.
(٣) سورة الأحزاب ٢٥.
(٤) سورة الضحى ٦ – ٨.
(٥) سورة الأعلى ١٠ ، ١١.

بـــناها فـــأعلى والقـــنا تقـــرع القنا ومـــوج المـــنايا حولهـــا مـــتلاطم

يريد فأعلاها ، لكن حذف المفعول لمراعاة وزن البيت.

و–قد يحذف المفعول لمجرد الاختصار ، كقولك : أصغيت إليه ، أي أدنى، ومنه القرآن قوله ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾(١) أي ذاتك.

ز–ويحذف المفعول لتعينه ، كقوله تعالى ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾(٢) أي ينذر الذيـــن كفروا ، حذف المفعول لكونه متعينا ولأن الغرض في الآية هو ذكر المنذر به.

جـ–دواعي تقديم المعمول على الفعل :

يقـــدم المفعول ونحوه – كالجار والمجرور والظرف والحال – على الفعل للأغراض الآتية :

١– إفـــادة التخصيص ، أي قصر العامل على معموله بحيث لا يتعداه إلى غيره كقوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٣) قدم المعمول (الكاف) لأن المقصـــود : نخصك بالعبادة وحدك والاستعانة بك دون غيرك ، فلا نعبد سواك ولا نستعين إلا بك ، ومنه قولك : الخير فعلت ، فتقدم المعمـــول ليفـــيد قصر الفعل على الخير ، وقولك : النحو ذاكرات ، بقصـــد قصـــر المذاكـــرة علـــى الـــنحو دون غيره من المواد وقوله

---

(١) سورة الأعراف ١٤٣.
(٢) سورة الكهف ٢.
(٣) سورة الفاتحة ٥.

تعــالى ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾(١) وهذا الأسلوب فى الغالب يكون للرد على مخاطب معتقد خلاف ما قلت أو يتردد فيه.

٢-ويقدم المعمول لمجرد الاهتمام بأمر المقدم دون القصد إلى التخصيص كقولــك : العلم لزمت ، لما كان المهم فى اعتبار المتكلم تعلق اللزوم بالعلم قدمه فى الكلام.

٣-التعجــيل بذكــر ما يتيمن به أو يتلذذ أو بذكر ما يسر أو يسئ ، مثال الأول قولك : بمحمد ص اقتديت، وإلى الله نبت ، والتلذذ كقولك : ليلى وصلت ، وعلى سلمى سلمت ، ومثال ما يسر : خيرا لقيت ، وتوفيقا جنيت ، ومثال ما يسئ : بشر منيت ، وبلص ابتليت.

٤-ويقــدم المعمول لكونه محط انكار كقولك لآخر : أفى الشر تسعى وقد علمــت عواقبه؟ قدم المعمول لأنه محل للإنكار فأنت تنكر عليه سعيه فى الشر مع معرفته بسوء عاقبته وقول الشاعر :

أكــل امــرئ تحســبين امــرأ ونــارا توقــد بالليــل نــار

٥-ويقدم المعمول بقصد المحافظة على الوزن أو رعاية الفاصلة ، مثال الأول قول الشاعر :

سـريع إلــى ابــن العم يلطم وجهه ولـيس إلــى داعى الندى بسريع

---

(١) سورة آل عمران ١٥٨.

يقول : إنه إلى الإيذاء أسرع منه إلى الإحسان ، وقد قدم المعمول (إلى داعي الندى) للمحافظة على وزن البيت ، ومثال الثاني قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾[1] قدم المعمول في قوله : ثم الجحيم ، وقوله : في سلسلة لرعاية فواصل الآيات ، ومنه قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[2] قدم اليتيم والسائل رعاية لفواصل الآيات ، وربما كان التقديم فيها للاهتمام بأمر المقدم.

تقديم بعض المعمولات على بعض :

وترى البليغ يقدم بعض المعمولات على بعض ليحقق أغراضاً بلاغية عدة منها :

١- **كون المقدم أهم** : فمثلا يحدث حادث غرق أو حرق فتتبلبل الأفكار وتضطرب النفوس فيقدم المخاطب ما يسكن الثائرين ويهدئ النفوس فيقول : أنقذ الطلبة رجال الإنقاذ "فيقدم المفعول على الفاعل لأنه الأهم والمقصود".[3]

ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[4] وقوله في آية أخرى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ

(١) سورة الحاقة ٣٠ – ٣٢.
(٢) سورة الضحى ٩ ، ١٠.
(٣) المعاني في ضوء أساليب القرآن ١٧٠.
(٤) سورة الأنعام ١٥١.

﴿نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾[1] قال في الأولى ﴿نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فقدم ضمير المخاطبين على الأولاد ، وقال في الثانية ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ فقدم ضمير الأولاد على المخاطبين وذلك لأن الخطاب في الأولى للفقراء بدليل قوله (من إملاق) المفيد أنهم في إملاق فكان رزقهم أهم عندهم من رزق أولادهم ؛ لأنهم في حاجة إليه ، فقدم الوعد برزقهم على الوعد برزق أولادهم ، والخطاب في الثانية للأغنياء بدليل قوله (خشية إملاق) فإن الخشية إنما تكون من أمر لم يقع فكان رزق أولاده في هذا السياق هو المطلوب دون رزقهم لأنه حاصل فقدم الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقهم ، وهذا في غاية الدقة كما ترى.[2]

٢-**أن يكون في التأخير إخلال بالمعنى المراد** : كما في قوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ والمقدم هو قوله (من آل فرعون) وهو صفة رجل ، ولو أخره عن (يكتم إيمانه) وقال : رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون ، لتوهم أنه متعلق بيكتم ، وأنه ليس صفة لرجل فلا يفهم أن الرجل من آل فرعون).

٣-**أن يكون في التأخير إخلال بالنظم** ، كقوله تعالى ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾[3] فالتقديم لهذه الصياغة اللفظية التي يعنى بها القرآن وهي إحدى وسائل تأثيره في النفس ،

(١) سورة الإسراء ٣١.
(٢) خصائص التركيب ٢٩٤.
(٣) سورة طه ٦٧، ٦٨.

وأصل الجملة (فأوجس موسى فى نفسه خيفة) وإذا قارنا بين التعبير فى الآيـة وبيـن الـنظم فـى الثانى ، وجدنا خروجاً على النسق وإخلالا بموسيقى النظم.(١)

٤-وقـد يكـون التقديم راجعاً إلى الأسبقية فى الفضل، وذلك كما فى قوله تعالى ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾(٢) قالوا: قدم الـرجالة ؛ لأنهـم أفضل منزلة عند الله لما يعانون فى الحج من الجهد والمشقة.(٣)

هذا وبالله التوفيق،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(١) المعانى فى ضوء أساليب القرآن ١٧٠.
(٢) سورة الحج ٢٧.
(٣) خصائص التراكيب ٢٩٥.

جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالشرقية

استمارة الاشتراك في

كتاب: محاضرات في علم المعاني

المادة : البلاغة

اسم الطالب:..
الفرقة : ....
العام الجامعي : ....
رقم الجلوس: ....

– تعاد هذه الاستمارة ثانية مع حلول الأسئلة التطبيقية التي ستسلم فيما بعد.

أستاذ المادة